الحِجاج في خطب الحَجَّاج

إعداد

د / عبدالله محمد أديب محمد شمس الدين القاوقجي

مدرس الأدب والنقد

في كلية اللغة العربية فرع جامعة الأزهر بالمنوفية

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

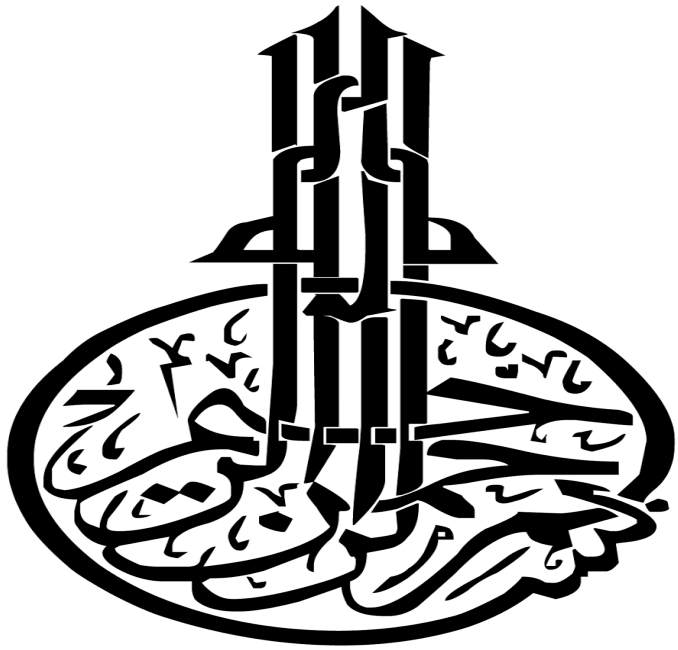

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾

[سورة النساء: ١٠٩].

الحِجاج في خطب الحَجَّاج

د. عبدالله محمد أديب محمد شمس الدين القاوقجي
مدرس بقسم الأدب والنقد بكلية اللغة العربية فرع جامعة الأزهر بالمنوفية
البريد الالكتروني:
abdallahshamseldien.lan@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

انمازت اللغة العربية من غيرها بتعدد آلياتها الحجاجية سواء علىٰ مستوىٰ الألفاظ أم علىٰ مستوىٰ التراكيب، كما تفرد الخطباء العرب بامتلاكهم نعمة البيان، وكان الحَجَّاج واحدا من هؤلاء الذين تمثلت اللغة علىٰ ألسنتهم في أبهىٰ صورها وأظهر خصائصها؛ فاستطاع بما أوتي من فصاحة ولسن أن يوظف آليات اللغة وبخاصة الحجاجية منها توظيفا ظهرت معه البنية الحجاجية للغة؛ من حيث منطلقاتها الحجاجية ووجوه اتصالها التتابعية والتواجدية، وحجة السلطة والاستلزام الحجاجي والسلم الحجاجي الذي اتسمت به خطبه، وبهذا استطاع أن يظهر علىٰ مناوئيه ويبذهم وخصوصا أنه كان ذا بصيرة نافذة فاذّة أمكنته من فهم نفسية المتلقين ومواطن التأثير فيهم، كما وظف النصوص الدينية والأشعار العربية توظيفا استدلاليا جعله يعضد فكرته بنصوص لا سبيل إلىٰ نكرانها، وساعده هذا أن جعل خطبه متعددة الأصوات ومسيطرة علىٰ قلوب المتلقين وعقولهم، كما أظهرت النظرية الحجاجية وجها آخر لخطب "الحَجَّاج" مغايرا للوجه الذي كانت تظهر به

قبل ذلك؛ وبهذا يمكننا التوجه إلىٰ تراثنا الأدبي مستعينين بالمناهج الحديثة التي تجلّي الوجوه الغائبة لهذه النصوص، وفي هذا إحياء لهذا التراث وبعثه، وقد أفادت هذه الدراسة في استخلاص فكرة عن العصر الأموي مفادها أن هذا العصر اعتلقت فيه قوة السيف مع قوة الكلمة؛ فالحَجَّاج استخدم كلتيهما في ردع الخارجين وإهماد ثوراتهم.

الكلمات المفتاحية: الحِجاج- خطب- الحَجَّاج- طرائق الاتصال- المنطلق الحجاجي- السلم الحجاجي- التناص الحجاجي.

Pilgrims in the sermons of al-haggag.

Abdullah Muhammad Adeeb Muhammad Shams al-Din al-kawkgy.
Lecturer, Department of Literature and Criticism, Faculty of Arabic Language, Al-Azhar University Branch, Menoufia
Email: abdallahshamseldien.lan@azhar.edu.eg

Abstract:

The Arabic language was distinguished from others by the multiplicity of its pilgrimage mechanisms, whether at the level of expressions or at the level of compositions, and the Arab preachers were uniquely possessing the blessing of eloquence, and al-haggag was one of those for whom the language was represented on their tongues in its best form and showed its characteristics. With his eloquence and age, he was able to employ the mechanisms of language, especially the argumentative ones, with the help of which the argumentative structure of language appeared. In terms of its pilgrim basis, its consecutive and existential communication faces,

And the argument of authority, the pilgrimage and the pilgrim peace that characterized his sermons, and in this way he was able to appear on his opponents and reject them, especially since he had a remarkable insight that enabled him to understand the psyche of the recipients and the places of influence on them. And this helped him to make his sermons polyphonic and dominating the hearts and minds of the recipients, as the Hajj theory showed another side of the sermons of " al-haggag ", different from the one they appeared in before that; Thus, we can approach our literary heritage with the help of modern approaches that reveal the absent faces of these texts, and in this revival of this heritage and its resurrection, and this study was useful in extracting an idea about the Umayyad

era that this age in which the power of the sword was intertwined with the power of word,Hk al-haggag used both of them to deter outsiders and put down their revolts.

Key words: pilgrims - sermons - alhaggag - methods of communication - orbital approach - orbital scale - orbital intertextuality**.**

تقديم:

الحمد لله خلق الإنسان علمه البيان، فكان أن تفاضل الناس منطقا وحجاجًا، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد سليل العدنان، أفصح العرب بيد أنه من قريش نسبا وحِجا، وبعد..

فقد اتسع مفهوم نظرية الحجاج وتفرعت أصولها علىٰ أشكال عديدة يوشك أن يكون الإلمام بها في نص واحد أشبه بالمستحيل إن لم يكن مستحيلا؛ ذاك أن لهذه النظرية أصولاً ضاربة في القدم منذ عصر المؤسس الحقيقي لفنون للجدل وألوان الخطابة "أرسطو" إلىٰ الآن؛ فما زال المنظرون يحاولون حصر آلياتها وطرقها، ومن ثَمّ اتسع مفهومها بحسب إسهاماتهم علىٰ مدىٰ العصور في تعديد آلياتها هذه وبسط طرقها تلك، وقد كان للعرب نصيب كبير في إرساء قواعد هذه النظرية والعمل علىٰ تبيين مظانها وإن لم يستخدموا المصطلحات الحديثة التي ابتدعها الغربيون في تنظيرهم إياها، وإنما كانوا يعنون بجماليات الذوق الأدبي أكثر من الاهتمام بتفاصيل المصطلحات وتنوع القياسات، وليس أدلَّ علىٰ اهتمام العرب بنظرية الحِجاج من النقدات التي وردت علىٰ ألسنة قدمائنا وهم يفاضلون بين النصوص أو حين وضعوا أسس النقد العربي في تراثنا المجيد من: حسن التعليل، والمدح بما يشبه الذم وعكسه، والمبالغة، وأسلوب الجدال والمناظرة وضرب الأمثال وأضرب الخبر والكنايات وحسن الابتداء وبراعة الاستهلال والمذهب الكلامي وربط المقدمات بالموضوعات وترتيب اللاحق علىٰ السابق، وغير ذلك من أبواب البلاغة العربية التليدة المجيدة والنظرات الأدبية الفاذّة والتصانيف النقدية التي شكلت تراثنا العظيم، بل إن

وظيفة الإقناع التي هي الغاية العظمىٰ للحجاج كانت هي الوظيفة نفسها التي قامت عليها الخطابة العربية كما نُص علىٰ ذلك في تعريفهم إياها، ويمكن القول بأن كل النظريات الأدبية والبلاغية الحديثة إذا هي تناهت إلىٰ أقصىٰ غاياتها لن تعدو إلا أن تصل إلىٰ قالة العرب منذ أزمان عديدة وهم يحاولون تقديم تعريف للبلاغة العربية حين قالوا إنها: "مطابقة الكلام لمقتضىٰ الحال مع فصاحته"(١)؛ أي إن العرب كانوا ينظرون إلىٰ الغايات ولم يعنوا بالطرق الموصلة لهذه الغايات العناية الكاملة؛ لأنهم اعتمدوا علىٰ سليقتهم التي كانت طريقهم الموصل لهذه الغاية، فلم يحتاجوا إلىٰ تقعيد كل هذه القواعد التي ابتدعها الغربيون الآن وإنما اكتفوا ببعض الأبواب التي تحدد معالم طريق النقد أدبيه وبلاغيه..، بل وحسبنا ما وجد من إشارات دالة في كلام البليغ الأول – صلىٰ الله عليه وسلم– كما في قوله: "إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليّ فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له علىٰ نحو ما أسمع منه فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذن منه شيئا فإنما أقطع له قطعة من النار"(٢)، فهذا الحديث يشير بجلاء –لا شبهة فيه– إلىٰ إتقان العرب فن الحديث والجدل والحجاج، وإذا كانوا يعلمون هذا الفن بل ويمارسونه في كلامهم فهذا دليل علىٰ وعيهم بقواعده وأصوله.

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب، تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي الأزراري، تحقيق: عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال – بيروت، الطبعة الأولىٰ ، ١٩٨٧م، ج١ص٢٣.

(٢) موطأ مالك – رواية يحيىٰ الليثي، مالك بن أنس، دار إحياء التراث العربي – مصر، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، ج٢ ص٧١٩.

الأمر الآخر أن ثبات نظرية الحجاج لم ينته بعدُ "فهي نظرية لم تنغلق بعدُ ولم تدخل كنظريات كثيرة حيز الماضي، لنتناولها وفق منهج تاريخي يهتم ببداياتها وتطوراتها ويرصد خصائص مدة اكتمالها وكيفيات انغلاقها بل نراها تشهد كل يوم ظهور مؤلفات جديدة تغني هذه النظرية وتثريها.."(١)، بل لا يزال المنظرون -علىٰ اختلاف مدارسهم وأفكارهم-يجدون لها أصداء في نصوص قديمة هنا وهناك ما يجعلهم يزيدون في تشعباتها واشتباكها مع مناهج أخرىٰ، وسأحاول في هذا البحث أن أظهر ما تحقق ثباته في خطب "الحجاج" من فنون الحجاج المتنوعة؛ فالوظيفة الحجاجية الإقناعية مشتركة بين الجدل والخطابة.

وقد دعاني لدراسة الحجاج عند "الحجاج" قالة لمالك بن دينار قال فيها: **"ربما سمعت الحجاج يذكر ما صنع فيه أهل العراق وما صنع بهم ، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه لبيانه وحسن تخليصه لحججه"(٢)**، وقد كان الراسخ في ذهني وحسي الصورة الدموية التي تكونت "للحجاج" عبر ما قرأت من أقواله وتهديداته التي شاب لها الولدان واقشعرت لها الأبدان، وما سمعته عن أفعاله التي أوغلت في باب الشر والاعتداء وبخاصة فعله مع الإمام الزاهد

(١) الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، عالم الكتب الحديث الأردن، الطبعة الثانية١٤٣٢ه- ٢٠١١م، ص١٥.

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب ـ، النويري، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولىٰ ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م، ج٧ ص١٩٠.

"سعيد بن جبير"(١)، فعندما قرات قول "مالك بن دينار" السابق تأكد لدي أن هناك أسلوبا خاصا في كلام "الحجاج" دعا "مالكًا" أن يقول هذا الكلام، ويتوهم أن "الحجاج" هو المجني عليه وليس الجاني، وبعد دراسة خطبه وجدت أن هذا الأسلوب ما هو إلا الصبغة الحجاجية التي صبغ بها خطبه، فجمعت أمري وتوكلت علىٰ الله تعالىٰ وشرعت أدرس خطبه، ولم أختص منها السياسية فقط وإنما آثرت أن يكون البحث شاملاً لكافة خطبه وذلك لأمرين:

أولهما: أن خطبه ليست من الكثرة بمكان حتىٰ تصعب دراستها في عمل واحد؛ فهي تسع عشرة خطبة تناثرت في كتب تراثنا المجيد؛ كما أن الرجل كان موجزاً في خطبه فجاءت معظمها قصيرة لم تتجاوز ثمانية أسطر أو تسعة علىٰ الأقصىٰ، ولم يطل منها إلا خطبته بعد دير الجماجم، وخطبته بالكوفة حين ولي أمر العراق.

وثانيهما: أن أخذ النتائج من كافة النتاج يكون أوثق وآكد فيطمئن لها القلب والعقل أكثر من أخذها من بعضها دون بقيتها.

وقد قامت دراسات عديدة حول خطب "الحجاج بن يوسف الثقفي"، واضطلع أصحابها بدراسة الخطب وتحليلها بلاغيا وأسلوبيا وأدبيا، لكن الدراسات الحجاجية منها اقتصرت علىٰ خطبة "الحجاج" الشهيرة حين

(١) قتله الحجاج سنة خمس وتسعين للهجرة، ويقال إن الحجاج لما حضرته الوفاة كان يغوص ثم يفيق ويقول: ما لي ولسعيد بن جبير، ينظر وفيات الأعيان، ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، الطبعة الأولىٰ ١٩٧١م، ج٢ ص٣٧٤.

ولج الكوفة واليا، ولم تتناول بقية خطبة التي بلغت تسع عشرة خطبة، ومن هذه الدراسات:

دراسة: "**البيان في خطب الحجاج بن يوسف الثقفي**[1] " وتحدث فيها الباحث عن الإطار التاريخي والأدبي للعصر الأموي، وعن فن الخطابة في ذلك العصر، ثم استتبع كلامه بالحديث تفصيلاً عن الصور البيانية؛ التشبيه، والاستعارة، والكناية في خطب "الحجاج"

ودراسة: "**خطب الحجاج بن يوسف الثقفي الوعظية دراسة في ضوء نظرية الاتصال الأدبي**[2] " وفيها مهد الباحث بتقديم موجز واف لنظرية الاتصال الأدبي التي أخرجها إلىٰ النور الأستاذ الدكتور "مراد عبدالرحمن مبروك" وهي نظرية تعالج النص من خمس زوايا هي: المبدع والرؤية التكوينية، والنص والخاصية النوعية، والوسيلة الاتصالية، والمتلقي واستراتيجية الاتصال، والارتداد العكسي، وقد مازج الباحث بين الجانب النظري والجانب التطبيقي في دراسة خطب "الحجاج" الوعظية.

(١) مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في الآداب واللغة العربية، فطيمة بلخيري، جامعة محمد خيضر –بسكرة–، كلية الآداب واللغات، قسم الآداب واللغة العربية، ١٤٣٥ه/ ٢٠١٤م.

(٢)محمد أرشد الحسن، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، بحث بمجلة التجديد المجلد ٢٠ العدد٤٠، يوليو ٢٠١٩م.

ودراسة: "بنية الملفوظ الحجاجي للخطبة في العصر الأموي"(١) "٢٠٠٦/ ٢٠٠٧" وفيها عرضت الباحثة لمفاهيم العنوان: البنية، والملفوظ، والخطابة، والحجاج، ثم تحدثت عن الأحزاب السياسية وأثرها علىٰ الخطابة في ذلك العصر، ثم طبقت الجانب النظري علىٰ أربع خطب من خطب ذلك العصر وهي: – خطبة الحجاج بن يوسف في أهل الكوفة: "الصفة، والكناية، والاستعارة، والتمثيل، والأصوات اللغوية، والأفعال اللغوية، والسلم الحجاجي، وعناصر التوكيد".

– خطبة أبي حمزة الشاري في أهل المدينة

– خطبة عبدالله بن الزبير في قتل أخيه مصعب

– خطبة عبدالله بن عباس يرد علىٰ عبدالله بن الزبير وقد عاب بني هاشم.

وقد استخدمت الباحثة المنهج الحجاجي في التحليل لكنها اقتصرت علىٰ خطبة واحدة من خطب الحجاج مما نتج عنه قصور في تمثيل هذا المنهج عند "الحجاج"؛ فخطبة الحجاج وحدة متجانسة سواء السياسية منها أم الدينية، لذا تعمدت في بحثي هذا عدم الفصل بينهما واستنباط النظرية من مجموع أقواله ليكون هذا أوثق وآكد، ولم يتيسر للباحثة أن يكون عملها بهذا الشمول لأنها لم تعن ببيان النظرية عند الحجاج وحده، وإنما كان عملها منصبا علىٰ مجمل العصر الأموي لذلك –ولها الحق والعذر– تخيرت نماذج بنت عليها بحثها، ومن الملحوظ علىٰ منهج الدراسة أن الباحثة أفردت لكل خطبة

(١) مذكرة لنيل درجة الماجستير، إعداد الطالبة خديجة محفوظي، كلية الآداب واللغات، جامعة منتوري قسنطينة الجمهورية الجزائرية، ٢٠٠٦/ ٢٠٠٧م.

دراسة منفصلة وهذا يجعلها تكرر نفسها تبعا لتكرار المنهج نفسه الذي تعالج به مادتها ولم تقم بموازنة كاشفة بين الخطب لتميز الخبيث من الطيب والضعيف من القوي أسلوبا وحجاجا.

ودراسة: "**البنية الحجاجية في الخطبة الأموية خطبة الحجاج بن يوسف أنموذجا**"(١) "٢٠١٥/٢٠١٦" وهي دراسة قامت على أكتاف الدراسة السابقة زمنيا ومنهجا ومادة؛ فقد عرضت الباحثة لمفهوم البنية والخطبة والإطار الأدبي والتاريخي للعصر الأموي، ثم تحدثت في مدخل عن ماهية الحجاج وأهم نظرياته، ثم قامت الباحثة بعرض الملفوظ الحجاجي في خطبة الحجاج من الصور البيانية الحجاجية والمؤشرات اللغوية والأفعال اللغوية والسلم الحجاجي، والجدول الآتي يوضح ذلك:

محل الدراسة	الدراسة الأولى: بنية الملفوظ الحجاجي للخطبة في العصر الأموي	الدراسة الثانية: البنية الحجاجية في الخطبة الأموية خطبة الحجاج بن يوسف أنموذجا
خطبة الحجاج في أهل الكوفة	تحدثت الباحثة عن البنية الحجاجية للخطبة من حيث:	تحدثت الباحثة عن البنية الحجاجية للخطبة من حيث:

(١) مذكرة لنيل درجة الماجستير، إعداد الطالبة غالم آمنة، كلية الآداب والفنون جامعة مستغانم، ٢٠١٥/ ٢٠١٦م.

	الصفة، والكناية، والاستعارة، والتمثيل والأصوات اللغوية، والأفعال اللغوية، والسلم الحجاجي، وعناصر التوكيد".	الصور البيانية الحجاجية والمؤشرات اللغوية والأفعال اللغوية والسلم الحجاجي.

ودراسة: "**الحجاج في خطب الحجاج بن يوسف الثقفي**"(١) وفيها عرضت الباحثة لفن الخطابة في العصر الأموي، وفي الفصل الأول تناولت: مفاهيم الحِجاج ووسائله في البلاغة العربية، وفي الفصل الثاني تناولت: وسائل الحجاج البلاغية في نماذج من خطب الحجاج بن يوسف الثقفي، لكن الباحثة اقتصرت علىٰ حجاجية التركيب وحجاجية الصورة وحجاجية البديع في كل خطبة من الخطب الخمس التي تناولتها.

وقد تناولت في حجاجية التركيب الروابط الحجاجية "الواو، والفاء، وثم، وقد" وأسلوب القصر، والأساليب الإنشائية: "الاستفهام، والنداء، والتمني، والأمر، والقسم"

(١) مذكرة لنيل درجة الماجستير، إعداد الطالبة عائشة سلامة، كليـــــة الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر بسكـــــرة ، الجمهورية الجزائرية ١٤٣٦ / ١٤٣٧ه/ ٢٠١٥/ ٢٠١٦م.

ودراسة: "آليات الحجاج في خطب الحجاج دراسة تداولية"(١) للباحث: "محمد شكيمة": وهي دراسة لنيل شهادة الماستر في اللغة العربية في تخصص: علوم اللسان، وقد يبدو التشابه الكبير بينها وهذا البحث، لكن صاحب هذه الدراسة كان معنيا بالآليات اللغوية فقط، فقد درس تحت عنوان: "آليات التوجيه الحجاجي عند الحجاج" ما يأتي:

النداء، الأمر، النهي، الاستفهام، التحذير، الإغراء، التوجيه بألفاظ المعجم، التوجيه بذكر العواقب، ودرس تحت عنوان: "الوسائل اللغوية التضمنية في خطب الحجاج" ما يأتي: العلم، ألفاظ المعجم، الإشاريات.

ودرس تحت عنوان: " الآليات اللغوية التلميحية في خطب الحجاج: ما يأتي: ألفاظ الكنايات التلميحية: لو، وإنما وحتىٰ، والأفعال اللغوية غير المباشرة، والملمحات ودورها في الحجاج، ويقصد بها: الأدوات اللغوية التي تدل علىٰ الافتراضات والتأكيدات والشكوك وغيرها من أفعال الرجحان.

ودرس تحت عنوان: " تقنيات الإقناع اللغوية في خطب "الحجاج" ما يأتي: تحصيل الحاصل، والوصف، وألفاظ التعليل، وتبادل الحجاج.

ودرس تحت عنوان: "السلالم الحجاجية والروابط الحجاجية" ما يأتي: تراتب مجموعة من الحجج في فئة حجاجية واحدة، وقد استنتج هذه السلالم من سبع خطب وهي: خطبته في أهل الكوفة، وخطبته بعد موقعة دير

(١) مذكرة لنيل درجة الماجستير، إعداد الطالب محمد الشكيمة، كلية الآداب واللغات، جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي، ١٤٣٦/ ١٤٣٧ه/ ٢٠١٥/ ٢٠١٦م.

الجماجم، و خطبته وقد سمع تكبيرا في السوق، وخطبته وقد أرجف أهل العراق بموته، و خطبته لما مات عبد الملك بن مروان، وخطبة أخرىٰ له بالبصرة، و خطبته بمكة بعد مقتل ابن الزبير، لكنه كان يكتفي بذكر تراتب الحجج دون أن يغوص في البناء الحجاجي للسلمة الحجاجية معتمدا علىٰ كثرة الشواهد التي يأتي بها؛ فقد كان يأتي بعشرين مثالاً أو يزيد استشهادا علىٰ آلية واحدة من آليات الحجاج، علىٰ حين أن دراسته الحجاجية كلها لخطب "الحجاج" أخذت تسعا وأربعين صفحة فقط من صفحات الرسالة التي بلغت إحدىٰ وخمسين ومائة صفحة.

كما درس تحت عنوان: **"الروابط الحجاجية"** فائدة: قد، وحتىٰ، ولكن، ولأن، وإذ، في العملية الحجاجية.

ومما سبق نجد أن الباحثين قد اقتصرا على الراوبط اللغوية الحجاجية دون أن يعنى أحدهما بمنطلقات الحِجاج عند "الحَجَّاج"، ولا بطرائق الاتصال التتابعي بأنواعه ولا بالاتصال التوجداي بأنواعه، ولا بالاستلزام الخطابي، ولا بمواطن التأثير الحجاجية؛ البيانية منها والتركيبية وأثرهما على البناء الحجاجي، ولا بالتناص وأثره في العملية الحجاجية، مما يؤدي إلى تغاير المنهج الحجاجي الذي استخدمته في دراستي عنه في هاتين الدراستين.

وبعد هذا الذي عرضت من الدراسات السابقة للفن النثري عند "الحجاج" لا أجد حرجا في تناول هذا الموضوع بالدراسة إلا أن تكون دراستي تكرار ممسوخًا أو اجتراراً مقيتا –وحاشاي من ذلك– لكني أريد أن أظهر الجانب الحجاجي عند "الحجاج" من جانب آخر غير الذي كان من

الباحث "محمد شكيمة" أو الآخرين عساي أن أظهر ما غاب عنهم وأقدم شيئًا جديدا.

بالإضافة إلىٰ أنه لا ضير من تناول الموضوع ذاته إذا سكب الإنسان فيه من نفسه حتىٰ يصبح موضوعا آخر؛ فليس معنىٰ الابتكار أن تكون الأفكار جديدة لم يسبق إليها؛ لكن قد يكون الابتكار في طريقة عرضها، وهذا ما عبر عنه " توفيق الحكيم" في كتابه "فن الأدب" إذ يقول: "ليس الابتكار في الأدب والفن أن تطرق موضوعًا لم يسبقك إليه سابق، ولا أن تعثر علىٰ فكرة لم تخطر علىٰ بال غيرك.. إنما الابتكار الأدبي والفني هو أن تتناول الفكرة التي قد تكون مألوفة للناس، فتسكب فيها من أدبك وفنك ما يجعلها تنقلب خلقًا جديداً يبهر العين ويدهش العقل.. أو أن تعالج الموضوع الذي كاد يبلىٰ بين أصابع السابقين، فإذا هو يضئ بين يديك بروح من عندك"(١)، وهذا ليس رأي "الحكيم" وحده في هذا الباب، بل رأي نقاد آخرين استشهد بهم في مقاله: "قال "شسترون" فيما أذكر مقدمًا لكتاب من كتب "ديكنز"(٢): إنه ما من علامة أفصح في الدلالة علىٰ انعدام الابتكار عند بعض الشعراء من نزوعهم إلىٰ البحث عن الموضوعات الغريبة، إن أرفع مراتب الابتكار قد يتسنمها شاعر يتغنىٰ في الربيع، فغناؤه يقطر جدة ونضارة، شأنه شأن الربيع

(١) فن الأدب، توفيق الحكيم، مكتبة مصر ص١١.

(٢) كاتب إنجليزي ولد في قرية "لاندبورت" عام ١٨١٢م، كان لا يفكر إلا في الإنسانية ولا يكتب إلا للإنسانية، ينظر مقدمة: أروع القصص للكاتب العبقري والمصلح الاجتماعي تشارلز ديكنز، محمد عطية الإبراشي، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر.

ذاته، ذلك الجديد النضر دائما مهما تتعاقب عليه القرون والحقب"(١)، ولا عجب إذ إن ميدان التنافس والاحتكاك يجلّي الابتكار الأفضل، ويظهره – وقد بز أمثاله– في صورة بهية تأخذ بالألباب وتأسر القلوب، ولا تزال الذائقة العربية تستعذب القصيدة ذات المقدمة الطللية التي تمهد للغرض الأساس، علىٰ كثرة تكرارها علىٰ الأسماع دون ملل، وتأسيسًا على ذلك يعد تناولي لهذا الموضوع بمحددات جديدة شأناً جديداً يستحق البحث والتناول بل المغامرة والمخاطرة والمتعة الفنية.

وقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة جاء فيها أسباب اختياري لدراسة فن الحِجاج في خطب "الحَجَّاج" وعرض للدراسات السابقة المتعلقة بالموضوع، مع بيان موجز لكل دراسة، وتمهيد تحدثت فيه عن المدخل التعريفي لمادة "الحجاج" واستعمالها في القرآن الكريم، وعلاقة الحجاج بفن الخطابة عند العرب، ثم عرضت لعلاقة فن الحِجاج بشخصية "الحَجَّاج"، ومبحثين جاء الأول منهما بعنوان : مقاربة خطب الحجاج حجاجيا، والثاني بعنوان: من آليات الحِجاج: التناص، ثم خاتمة وبها أهم نتائج البحث، وثبت بالمصادر والمراجع.

وبعد.. فالله أسأل العون والسداد إنه نعم المولىٰ ونعم النصير، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

(١) فن الأدب، ص١٢.

التمهيد:

١ - المدخل التعريفي:

دارت مادة "حجج" في المعاجم العربية حول القصد، والمخاصمة والمغالبة بقصد الظفر، والتخاصم وذلك علىٰ نحو ما جاء في لسان العرب لابن منظور: "الحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة وهو رجل محجاج أي جدل والتحاج التخاصم وجمع الحجة حجج وحجاج وحاجه محاجة وحجاجا نازعه الحجة وحجه يحجه حجا غلبه علىٰ حجته وفي الحديث فحج آدم موسىٰ أي غلبه بالحجة واحتج بالشيء اتخذه حجة"(١)، وأما التعاريف الاصطلاحية فأيضا دارت حول استمالة المتلقي والتأثير عليه بالإقناع فيحده "جميل عبدالمجيد بقوله: "الحجاج خطابة تستهدف استمالة عقل المتلقي، والتأثير علىٰ سلوكه، أي الإقناع"(٢)، أما "طه عبدالرحمن" فهو عنده: "أصل في كل تفاعل بين المخاطب والمتلقي إما تبادلا أو تناقلا للتعبير أو ربطا وظيفيا، أو حتىٰ تجاوبا وجدانيا"(٣)، وهذا تعريف جامع لوظائف الحجاج المختلفة من حيث التأثير والإقناع والاستمالة.

(١) لسان العرب، ابن منظور، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مادة حجج.

(٢) البلاغة والاتصال، جميل عبد المجيد، دار غريب، القاهرة، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٠م ص٧.

(٣) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبدالرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٨م، ص٢٢٩.

٢- الحجاج في القرآن الكريم:

وردت مادة "حاج" في القرآن الكريم لتحمل معني مغالبة الحجة بالحجة، والبرهان بالبرهان يقول تعالىٰ: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة البقرة:٧٦]، ويقول تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [سورة البقرة:٢٥٨]، والاحتجاج سماه "الزركشي" إلجام الخصم بالحجة و المقصود به: "الاحتجاج علىٰ المعنىٰ المقصود بحجة عقلية، تقطع المعاند له فيه"(١)، كما استخدم القرآن المنهج الحجاجي وإن لم ينص علىٰ مادة "حاج" لكنه استخدم إجراءاته العقلية يقول تعالىٰ: "﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ [سورة المؤمنون: ٩١] وهذه حجة عقلية تقديرها أنه لو كان خالقان لاستبد كل منهما بخلقه فكان الذي يقدر عليه أحدهما لا يقدر عليه الآخر ويؤدي إلىٰ

(١) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة : الأولىٰ: ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م، دار إحياء الكتب العربية عيسىٰ البابىٰ الحلبي وشركائه، ج٣ ص٤٦٨.

تناهىٰ"[1]، وفي هذا بيان إلىٰ مهارة العرب القدامىٰ الذين تلقوا القرآن الكريم علىٰ أبدع ما يكون التلقي تعليما واستخداما، وعلىٰ هذا يكون الاستخدام القرآني لمادة "حجج" تقديم الحجج والأدلة لدحض الافتراءات، وإثبات النتائج الفاسدة إذا ترتبت علىٰ مقدمات فاسدة لا تتناسب مع النظام الذي سيّر الله تعالىٰ الكون عليه.

٣- الحِجاج والخطاب:

الحجاج قرين الخطاب فالهدف الأسمىٰ منه هو الإقناع ولا شيء أقدر عليه من الحجاج الذي يستخدم الخطيب الحصيف آلياته بغية إحكام الدائرة حول المخاطبين فينصاعوا لما يريد، وإذا كان الخطاب يعرف بأنه: "توجيه الكلام نحو الغير للإفهام ثم نقل منه إلىٰ ما يقع به التخاطب من الكلام لفظيا أو نفسيا"[2]، فعلىٰ هذا تتسع دائرته ليكون المجال أرحب أمام الحجاج بكل أشكاله ووظائفه، ومن هنا تعدد ألوان الحجاج بحسب تنوع الخطاب؛ فإذا كان الخطاب بلاغيا أدبيا كان الحجاج بلاغيا أدبيا، وإذا كان الخطاب سياسيا كان الحجاج سياسيا، وإذا كان الخطاب اجتماعيا كان الحجاج اجتماعيا[3]، وما أتغياه في هذا البحث هو الحجاج البلاغي الأدبي النابع من الخطاب

(١) نفسه ص٤٦٨.

(٢) دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، القاضي عبدالنبي بن عبدالرسول الأحمد نكري، عربه من الفارسية حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية بيروت، ج٢ ص٦١.

(٣) ينظر مجلة عالم الفكر، الاستدلال الحجاجي، حبيب أعراب، مجلد ٣٠ عدد ١ ٢٠٠١ ص٩٨.

البلاغي الأدبي، وأكبر تمثيل للخطاب الأدبي النثري في العصر الأموي الزاهي هو الخطابة التي لاقت قبولا ورواجا لأسباب عدة منها:

- تعدد الأحزاب ووجود الداعي.
- امتلاك اللسن والفصاحة.

فتعد الخطابة من مفاخر العرب وبخاصة في العصر الإسلامي ومن بعده العصر الأموي؛ لذا يعد الأستاذ "الزيات" هذين العصرين أزهىٰ العصور العربية في مجال الخطابة: "لا يوجد في عصور اللغة عصر زها بالخطابة وحفل بالخطباء كهذا العصر لانحراف العرب عن الشعر إليها، واعتمادهم في الدين والسياسة عليها"(١)، فالخطابة أهم وسيلة للتواصل في العصور السوالف، ولا غرو أن انمازت وبلغت أوج مجدها حين تضمنت آيات القرآن الكريم والحديث الشريف فكان من ذلك أن قويت ألفاظها وتلاحم نسيجها وصفا نميرها: "وأهم ما يميزها في هذا العصر عذوبة ألفاظها ومتانة أسلوبها وقوة تأثيرها واقتباسها من القرآن .."(٢)، ومن أجل هذا كله وقع اختياري علىٰ خطب "الحجاج" لدراسة آليات الحجاج بها وبيان أثرها الأدبي.

٤- الحِجاج والحَجَّاج:

تتعاون ثلاث مكونات في تكوين البنية الحجاجية وهي: "المكون السياقي/ الثقافي، والمكون المنطقي، والمكون اللغوي، إذ تسري علاقات

(١) تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات، دار نهضة مصر للطباعة والنشر القاهرة، ص ١٧٦.

(٢) نفسه ص١٧٦.

التأثير بين هذه المكونات الثلاثة سريانا طبعيا ولازما"[1]، وقد امتلك "الحجاج" ناصية هذه المكونات؛ فالمكون الأول يسيطر علىٰ أطرافه إذ هو حاكم أطلق الخليفة يده فامتلك مقاليد الأمور، وجانبه مرهوب، والمكون الثاني فحجته فيه قوية ومنطقه خالب، يعرف كيف يدحض حجج الآخرين، وهذا ما يقتضيه الخطاب الحجاجي: "إن الاستعمال الاجتماعي للكلام يبرز للحجاج سمة مميزة فكل حجة تفترض حجة مضادة، ولا وجود البتة لحجاج دون حجاج مضاد"[2]، وأما المكون الثالث فهو لسن فصيح، وليس أظهر من مفرداته وتراكيبه وصوره المجازية وأساليبه وإعادة تقديم النصوص القديمة في معرض جديد؛ ليس أظهر من ذلك كله دليلا علىٰ سليقته اللغوية التي أمكنته من التحكم في زمام الأمور، وأولته الغلبة علىٰ أعدائه، ومن هنا دخلت خطب الحجاج في الإطار الحجاجي دون عناء؛ إذ توافرت في خطبه هذه المكونات بصورة واضحة.

وقد تناثرت خطب "الحجاج" في كتب الأقدمين؛ فقد وردت نصوصها في أمهات كتب التراث ومنها: البيان والتبيين للجاحظ، والعقد الفريد لابن عبدربه، والكامل للمبرد، وغيرها كثير وذلك نظرا لفصاحتها وبلاغتها وأنها مناط استشهاد لكثير من القواعد البلاغية والأدبية، كما عنيت كتب المحدثين

(١) آليات الحجاج وأدواته، عبد الهادي بن ظافر الشهري، ضمن مجموعة مقالات وبحوث في: الحجاج مفهومه ومجالاته؛ دراسات نظرية وتطبيقية في= = البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب، إربد الأردن، الطبعة الأولىٰ ١٤٣١ه/ ٢٠١٠م، الجزء ١ ص٧٦.

(٢) الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، ص٢٤.

بتتبع آثاره وضمها، فقد قام "علي حسين صافي" بجمعها في كتابه "الحجاج حياته وخطاباته"، وكذلك فعل "إحسان صدقي" في كتابه "الحجاج بن يوسف الثقفي حياته وآراؤه السياسية"، لكن اعتمادي كان علىٰ كتاب "أحمد زكي صفوت" الذي عنونه بعنوان "جمهرة خطب العرب" وذلك نظرا لاستيعابه جل خطب "الحجاج" فقد أورد أربع عشرة خطبة سياسية، كما أورد خمس خطب وعظية، بالإضافة إلىٰ أنه أورد الخطب تامة غير منقوصة علىٰ حين أن الكتب الأخرىٰ وبخاصة التراثية كانت تورد أجزاء من الخطبة بحسب محل الاستشهاد الذي سيقت من أجله.

المبحث الأول: مقاربة خطب الحَجَّاج حِجاجيا

إن تحليل النثر القديم وفق مناهج معاصرة ليس بدعا من التحليل وإنما هو محاولة لإعادة قراءة النثر القديم بطريقة مغايرة تزيده ثراء فوق ثرائه، وبيانا فوق بيانه، ولعل المنهج الحجاجي أقرب المناهج المعاصرة إلىٰ فن الخطابة؛ فالحجاج قرين الخطابة لا سيما السياسية منها بل هما وجهان لعملة واحدة لا ينفك أحدهما عن صاحبه، فحيثما وجدت الخطابة وجدت الأساليب الحجاجية التي يستعين بها الخطيب لإقناع جمهوره وإلزامهم الحجة، وفيما يأتي بيان للمنهج الحجاجي الذي استخلصته من خطب الحجاج التي توافر فيها المنهج الحجاجي بصورة مائزة:

أولا: منطلقات الحِجاج عند "الحَجَّاج":

بدت السليقة العربية قوية عند "الحجاج" وذلك من خلال خطبه ذات الوقع الذي لا تخطئه الأذن ولا يزيغ عنها الحس، فلم تكن جعجعة بغير طحن بل كانت جعجعة بطحن؛ ذاك أنه كان يتخير منطلقاته تخيرا دالا يؤكد أنه كان يقصد ذلك قصدا وإن كانت خطبه ارتجالا، وما ذاك إلا لنفاذ عقله وسرعة بديهته ونقاء سليقته التي أمكنته من التعبير البين الدال، وتخير المنطلقات القوية يؤدي إلىٰ حجاج ناجح مؤثر في المتلقين وموجه إلىٰ ما يريده الخطيب، أو ملزمهم الحجة التي تبطل ادعاءاتهم، كما أن اختيار المنطلق المناسب أو التقديم الصحيح يحدد موقف المخاطبين مما سيأتي من قابل الخطبة، ويؤهلهم نفسيا لما سيسمعونه؛ إذ هو مرتبط به، يقول "ابن الأثير" في هذه المنطلقات: "وإنما خصت الابتداءات بالاختيار لأنها أول ما يطرق السمع من الكلام فإذا كان الابتداء لائقا بالمعنىٰ الوارد بعده توفرت

الدواعي علىٰ استماعه"(١)، وهذا يفسر غياب البسملة والحمدلة والصلاة علىٰ نبينا محمد –صلىٰ الله عليه وآله وسلم– من أكثر خطب "الحجاج"؛ إذ هذا الاستفتاح الإسلامي فيه ترحم بالمخاطبين، وهذا الترحم مما لا يتساوق مع مضمون الخطبة هنا، لذا بتره "الحجاج" واستبدل به هذه المنطلقات التي تماشت مع حِجاجه وتهديداته لتكون بهذا من الخطب البتراء أو الشوهاء، ومن هنا كانت خطب "الحجاج" ذات صبغة حجاجية بينة، كما أن هذه المنطلقات تعد ترتيبًا دقيقًا لأجزاء الخطبة وهذا الترتيب يشغل أهمية كبرىٰ في البناء الفني للخطبة وبخاصة الحجاجية؛ فهو العنصر الثاني من العناصر الخمسة المكونة للنص: "الإيجاد، الترتيب، العبارة، الذاكرة، الإلقاء"(٢)، ومن هنا اكتسبت تلك المنطلقات أهمية كبرىٰ يجب التوقف عندها وحصرها حتىٰ تتبين العملية الحجاجية تبينًا فاعلاً، وفي الجدول الآتي نماذج الأنماط التي انطلق منها "الحجاج" في خطبه:

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، أبو الفتح ضياء الدين نصرالله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الموصلي، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية – بيروت ، ١٩٩٥م، ج٢ ص٢٢٤.

(٢) ينظر: البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، هنريش بليت، ترجمة د. محمد العمري، أفريقيا الشرق– المغرب، الطبعة الثانية ١٩٩٩م، ص٣٣.

الخطبة	المنطلق الحجاجي	نتيجته	المنطلق الحجاجي
خطبته وقد أرجف أهل العراق بموته	وقوله: "يأهل الشِّقاق والنِّفاق، نَفخ إبليسُ في مَناخِركم فقُلتم: مات الحجَّاج، مات الحجاج"	"فَمَهْ، واللّه ما أحب ألاّ أموت، وما أرْجو الخَيْر كُلّه إلاّ بعد الموت، وما رأيتُ اللّه عزّ وجل كتب الخلود لأحدٍ من خَلقه إلا لأهونهم عليه، إبليس"	تقبيح المخاطبين
خطبته بعد وقعة دير الجماجم	وقوله: "يا أهل العراق إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف، ثم أفضىٰ إلىٰ الأصماخ والأمخاخ.."	"فكيف تنفعكم تجربة أو ينفعكم بيان؟.."	
خطبته بعد قتل ابن الزبير	وقوله: " يأهل الحجاز كيف رأيتموني ألم أكشف ظلمة الجور وطخية الباطل بنور الحق"	فإياكم أن تزلوا عن سنن أقمناكم عليه فأقطع عنكم ما وصلته لكم بالصارم البتار وأقيم من أودكم ما يقيم المثقف من أود القناة بالنار"	

الخطبة	المنطلق الحجاجي	نتيجته	المنطلق الحجاجي
خطبته وقد سمع تكبيرا في السوق	"يأهل العراق يأهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق وبني اللكيعة وعبيد العصا وأولاد الإماء والفقع بالقرقر"	"أما والله لا تقرع عصا عصا إلا جعلتها كأمس الدابر"	
خطب في ذم الدنيا	"أيها الناس إنكم أغراض حمام، وفرضة هلكة، قد أنذركم القرآن، وصفر برحيلكم الجديدان، وإن لكم أجلاً لا تؤخر ساعته.."	" فماذا عبأتم للرحيل؟ وماذا أعددتم للنزول؟ ومن لم يأخذ أهبة الحذر، نزل به سوء القدر."	
خطب الحجاج بالكوفة	" يا أهل العراق، تزعمون أنَّا من بقية ثمود، وتزعمون أني ساحر، وتزعمون أنَّ الله عزَّ وجل علَّمني اسمًا من أسمائه أقهركم به.."	"فبيني وبينكم كتاب الله تعالىٰ. قال " عز وجلَّ: " فلمَّا جاء أمرنا نجَّينا صالحًا والَّذين آمنوا معه " فنحن بقية الصالحين إن كنَّا من ثمود.. وقال جلّ وعز:	فرض المقدمات ثم تفنيدها

الخطبة	المنطلق الحجاجي	نتيجته	المنطلق الحجاجي
		" إنّما صنعوا كيد ساحرٍ ولا يفلح الساحر حيث أتىٰ" والله أعدل في حكمه من أن يعلّم عدواً من أعدائه اسمًا من أسمائه يهزم به أولياءه "	
خطبة الحجاج بعد مقتل ابن الزبير	"ألا إن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة حتىٰ رغب في الخلافة ونازع فيها وخلع طاعة الله واستكن بحرم الله ولو كان شيء مانعا للعصاة لمنع آدم حرمة الجنة لأن الله تعالىٰ خلقه بيده وأسجد له ملائكته وأباحه جنته فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته"	:وآدم علىٰ الله أكرم من ابن الزبير والجنة أعظم حرمة من الكعبة.. ثم نزل وهو يقول: (أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها ... وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا) "	
خطبته حين ولي	وقوله: "(أنا ابن جلا وطلاع الثنايا	"وايم الله لألحونكم لحو العود ولأقرعنكم	البدء بالتهديد

الخطبة	المنطلق الحجاجي	نتيجته	المنطلق الحجاجي
العراق سنة ٧٥هـ	... متىٰ اضع العمامة تعرفوني) والله يا أهل العراق إني لأرىٰ رؤوسا قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها.."	قرع المروة ولأعصبنكم عصب السلمة ولأضربنكم ضرب غريبة الإبل إني والله لا أحلف إلا صدقت ولا أعد إلا وفيت"	
خطبته وقد قدم البصرة	وقوله: "أيها الناس من أعياه داؤه فعندي دواؤه ومن استطال أجله فعلي أن أعجله ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله.."	"إني أنذر ثم لا أنظر وأحذر ثم لا أعذر وأتوعد ثم لا أعفو.. والله لا آمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه"	

ويتضح من هذا الإحصاء أن الأنماط التي اعتمدها "الحجاج" منطلقا لحجاجه انحصرت في ثلاث مقدمات هي: تقبيح المخاطبين، وتفنيد دعواهم، والبدء بالتهديد، وهي مقدمات تتيح للمحاجِج أن يفند دعاوىٰ المخاطبين وإبطالها دون عسير؛ فتقبيح المخاطبين المؤيد بالأدلة سبب قوي لأن ينزل به تهديدهم وعذابه، وفي الوقت ذاته هو في العملية الحجاجية انتصار له وهزيمة لهم، وتفنيد دعواهم وإبطالها مسوغ يتيح له أن يعاقبهم بما شاء،

والبدء بتهديد جاء في المواقف التي فيها إعلان العصيان مما يستوجب أن يبدأ بالقوة وبخاصة حينما تأتي هذه القوة من إنسان له من البطش والتنكيل ما له، فذلك يكون آكد عند المخاطبين، وبهذا نستطيع أن نصف هذه المنطلقات بأنها من مطابقة مقتضىٰ الحال الذي جعله البلاغيون عنوانا للبلاغة العربية؛ فالمخاطبون في حالة عصيان وتمرد تقتضي من الخطيب أن يهاجمهم ويهددهم لينهي حالة العصيان هذه عندهم، وإن اختلفت المقدمات الحجاجية هنا ظاهريا لكنها جميعا تؤدي إلىٰ نتيجة واحدة مؤداها: انتصار "الحجاج" علىٰ المخاطبين وإلزامهم الخضوع له واتباع أمره رهبة وخوفا.

ثانيا: طرائق الاتصال:

تتعدد وجوه الاتصال وقنواته بين الخطيب والجمهور، وإن انقطعت هذه الوجوه أو تلك القنوات يحدث الانفصام بين الخطيب وجمهوره أي يصبح هو في واد وهم في واد آخر كما يقولون، وقد أطال منظرو نظرية الحجاج في طرائق الاتصال هذه فهي تتنوع إلىٰ: حجج منطقية وحجج شبه منطقية تعتمد البنىٰ المنطقية كالتناقض والتماثل والعلاقة التبادلية وحجج التعدية، وحجج شبه منطقية تعتمد البنىٰ الرياضية كإدماج الجزء في الكل وتقسيم الكل إلىٰ أجزائه المكونة(١)، وكل هذه الوجوه ليس لها حضور فاعل في خطب "الحجاج"، أما الوجوه التي كان لها دور فاعل في خطبه فتتمثل في الحجج المؤسسة علىٰ بنية الواقع وتأتي علىٰ وجهين:

(١) ينظر: في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، أد عبدالله صولة، مسكيلياني للنشر والتوزيع تونس، الطبعة الأولىٰ ٢٠١١م، ص٤٢ وما بعدها.

الوجه الأول: وجوه الاتصال التتابعي:

الوصل السببي:

يتعلق الوصل السببي بالأسباب ومسبَباتها أو بالمقدمات وما يترتب عليها من نتائج، بحيث يجعل أجزاء الكلام مرتبطة ببعضها عن طريق الحتمية أو اللزوم، ولا شك أن هذا يعطي النص تماسكا منطقيا له أثره في العملية الحجاجية التي هي مناط التأثير، وللوصل السببي ثلاثة طرق(١):

- حجاج يرمي إلىٰ الربط بين حدثين متتابعين بواسطة رابط سببي.
- حجاج يرمي إلىٰ أن يُستخلص من حدث ما وقع سبب أحدثه وأدىٰ إليه.
- حجاج يرمي إلىٰ التكهن بما سينجم عن حدث ما من نتائج.

ومعنىٰ هذا أن العملية الحجاجية يمكن الاعتماد فيها علىٰ السبب أو النتيجة المباشرة له أو بما يتوقع حدوثه، وهذا ما بدا واضحا في خطب "الحجاج" وكان له أثره البالغ في نفوذ سطوة "الحجاج" في خطبه.

فمن النوع الأول ما ورد في خطبته حين ذكروا أنه مَرض ففرح أهلُ العراق، وقالوا: مات الحجاج. فلما بلغه، تحاملَ حتىٰ صَعِد المنبر فقال: يأهل الشِّقاق والنِّفاق، نَفخ إبليسُ في مَناخِركم فقُلتم: مات الحجَّاج، مات الحجاج" فهنا جعل "الحجاج" قولهم: "مات الحجاج" مبنيا علىٰ ما فعله إبليس فيهم، وهذا الربط يسوغ "للحجاج" أن ينزل بهم ما يريد ممن العقوبة والتهديد، وفي الوقت ذاته هو حجة قوية استثمرها في محاجتهم وبسط هيمنته عليهم.

(١) ينظر: نفسه ص٥٠.

ومن النوع الثاني قوله: "يا أهل الشام أنتم الجنة والرداء، وأنتم الملاءة والحذاء، أنتم الأولياء والأنصار، والشعار دون الدثار، بكم يذب عن البيضة والحوزة، وبكم ترمي كتائب الأعداء ويهزم من عاند وتولىٰ"، وقوله: "وإنّ أميرَ المُؤمنين نثر كِنَانته بين يديه، ثم عَجَم عِيدانَها، فَوَجدني أمرَّها عُوداً، وأشدَّها مَكْسِراً، فَوَجهني إليكم، ورَماكم بي، فإنّه قد طالما أوضعتم في الفتن، وسنَنْتم سُنَن الغَي، وايم اللّه لأَلْحونكم لَحْو العصا، ولأقرعنّكم قَرْع المَرْوَة، ولأعْصِبنّكم عَصْب السَّلَمة، ولأضْربنكم ضَرْب غَرائب الإبل" ففي كلا الشاهدين يستخلص "الحجاج" من الحدث السبب الذي أدىٰ إليه؛ ففي الشاهد الأول نجد أن الحدث هو: الذب عن الدين ورمي كتائب الأعداء، وسببه أن أهل الشام هم الجنة والرداء والملاءة والحذاء والأولياء والأنصار والشعار دون الدثار، وفي الشاهد الثاني نجد أن الحدث هو: تولية عبدالملك بن مروان إمارة العراق للحجاج ، والسبب: أنه أقوىٰ رجاله وأصلبهم عودا، وهذا الاتصال السببي هنا يجعل ما يقوله أكثر حجاجا وإقناعا لأن الحدث هنا معضد بسبب ولم يأت مرسلا.

ومن النوع الثالث قوله: " ألا وإنكم ستقولون بعدي: لا أحسن الله له الصحابة، ألا وإني معجل لكم الجواب: لا أحسن الله عليكم الخلافة"، "فالحجاج" لما أراد الحج استخلف ابنه علىٰ أهل العراق وأوصاه بخلاف وصية رسول الله – صلىٰ الله عليه وسلم– وتكهن بما سيقولونه، فأعجل لهم الرد كي يقطع عليهم الطريق، وهذا نوع من الحجاج استخدمه "الحجاج" أسكت به خصومه وبهتهم.

ومن النصوص التي تداخل فيها أكثر من نوع من أنواع الاتصال السببي خطبته في أهل الكوفة التي يقول فيها: "إنّي واللّه يأهل العِراق، ومَعْدِنَ الشِّقاقْ والنِّفاق، ومَسَاوِي الأخلاق، لا يُغْمَز جانبي كَتغْماز التّين، ولا يُقَعْقع لي بالشِّنان، ولقد فُرِزْتُ عِن ذكاء، وفُتشت عن تَجْربة، وأجْرِيت إلىٰ الغاية القُصْوىٰ، وإنّ أميرَ المُؤمنين نثر كِنَانته بين يديه، ثم عَجَم عِيدانَها، فَوَجدني أمرَّها عُوداً، وأشدَّها مَكْسِراً، فَوَجهني إليكم، ورَماكم بي، فإنّه قد طالما أوضعتم في الفتن، وسنَنْتم سُنَن الغَي، وايم اللّه لأَلْحونكم لَحْو العصا، ولأقرعنّكم قَرْع المَرْوَة، ولأعْصِبنّكم عَصْب السَّلَمة، ولأضْربنكم ضَرْب غَرائب الإبل. أمَا واللّه لا أعد إلّا وَفَّيت، ولا أخلُق إلّا فَريْت. وإياي وهذه الشفعاء والزَّرافات والجماعات، وقالًا وقيلاً، وما يقولون، وفيم أنتم وذاك؛ والله لتَسْتقيمُن علىٰ طريق الحق أو لأدعنّ لكُل رجل منكم شُغلاً في جَسده، مَن وجدتُه بعد ثالثة من بَعْث المُهلّب سفكتُ دمَه، وانتهبت مالَه، وهدمتُ منزله" **فمن النوع الأول قوله**: "نثر كِنَانته بين يديه، ثم عَجَم عِيدانَها، فَوَجدني أمرَّها عُوداً، وأشدَّها مَكْسِراً، فَوَجهني إليكم، ورَماكم بي" فقد ترابطت الجمل عن طريق الترابط السببي؛ فقوله "فَوَجهني إليكم" مترتب علىٰ قوله "فَوَجدني أمرَّها عُوداً" وهو بدوره مترتب علىٰ قوله "نثر كِنَانته بين يديه، ثم عَجَم عِيدانَها" وهذا التراتب أعطىٰ الجمل تماسكا ومنطقا أدىٰ دورا حجاجيا ومقنعا لدىٰ المخاطبين.

ومن النوع الثاني قوله: "فَوَجهني إليكم، ورَماكم بي، فإنّه قد طالما أوضعتم في الفتن، وسنَنْتم سُنَن الغَي" فقد استجلبه الخليفة واليا علىٰ الكوفة

تبعا لفتنهم وغيهم، فترتب التوجيه علىٰ الفتن والغي، وكان من ذلك الربط أن سوغ له أن يهددهم بعدها بقوله: "وايم اللّه لأَلْحونكم لَحْو العصا..."

ومن النوع الثالث جاء تكهنه واستشرافه الأحداث بقوله: "وإياي وهذه الشفعاء والزَّرافات والجماعات، وقالًا وقيلاً، وما يقولون، وفيم أنتم وذاك" فقد قطع الطريق عليهم وحذرهم من الشفعاء والتجمعات علىٰ الإثم والقال والقيل، وما نفاذ ذاك التهديد إلا لأنه مسبب عن قوله السابق: "أمَا واللّه لا أعد إلّا وَفَّيت، ولا أخلُق إلّا فَريْت" فهذه التراتبية بين الجمل تضافرت لتجعل كلامه ذا أثر نافذ عند المتلقين.

الوجه الثاني: وجوه الاتصال التواجدي:

أ) السياق السابق أو الشخص وأعماله:

يعد كلام الإنسان هو الوجه الحسي المعبر عما بداخله، بالإضافة إلىٰ ما يظهر عليه من علائم التعبير أو ما يقال له "لغة الجسد"، وقد نبهنا القرآن الكريم إلىٰ قيمة الكلمة وخطورتها يقول تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة إبراهيم: ٢٤-٢٦] ، ونبهت النظرية الحجاجية إلىٰ مكون آخر ليس أقل تأثيرا من سابقيه وهو ما لهذا الإنسان من تاريخ وأعمال تكوّن سياقا يضاف لسياق الحديث الذي يسوق فيه الكلام: "إن علم الأخلاق والقضاء يعتمدان مفهومي "الإنسان وأعماله" من حيث هما مفهومان

مترابطان متواشجان لا فكاك لأحدهما عن الآخر"[1]، وعلىٰ هذا يجب أن يقدر كلام الإنسان من خلال مجمل أعماله وما اشتهر به، علىٰ أساس أنها السياق الذي ينهض بالتأويل إذا غمضت الكلمات ولم يبن منها القصد المراد، ومن هنا يمكن الانطلاق إلىٰ دراسة كلام "الحجاج" في ضوء تاريخه الدموي؛ فيكون تهديده ليس كأي تهديد، ونظراته ليست كأية نظرات، ويكون كلامه: " وايم اللّه لأَلْحونكم لَحْو العصا، ولأقرعنّكم قَرْع المَرْوَة، ولأعْصِبنّكم عَصْب السَّلَمة، ولأضْربنكم ضَرْب غَرائب الإبل. أمَا واللّه لا أعد إلّا وَفَّيت، ولا أخلُق إلّا فَريْت. وإياي وهذه الشفعاء والزِّرافات والجماعات، وقالًا وقيلاً، وما يقولون، وفيم أنتم وذاك؛ والله لتَسْتقيمُن علىٰ طريق الحق أو لأدعنّ لكُل رجل منكم شُغلاً في جَسده، مَن وجدتُه بعد ثالثة من بَعْث المُهلّب سفكتُ دمَه، وانتهبت مالَه، وهدمتُ منزله" ليس كأي كلام يصدر من حاكم علىٰ سبيل التهديد فقط، وإنما له دوره في العملية الحجاجية لأنه صدر من الحجاج الذي لا يستغرب منه –حسب ما جاء منه قبل ذلك– أن يأتي بما يقول وأكثر مما قال، ويقاس علىٰ ذلك كل تهديد صدر من الحجاج يكون لشخصه أثر في تقديره:"وإذن علاقة الوصل التواجدية

لا يتبع الحِجاج فيها مسار عمل ⟵ شخص وإنما يتبع فيها أيضا مسار شخص ⟵ عمل، وهذا السياق السابق هو ما أسماه "برلمان" التداخل بين العمل والشخص"[2]، فالكلام هنا يستمد تأثيره وقوته من قوة

(١) في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، ص٥١.

(٢) في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات ص٥٢.

قائله في نفوس المتلقين، وهذا أساس رصين من أسس العملية الحجاجية التي عليها مدار الحديث.

ب) حجة السلطة:

وارتباطًا بما سبق تأتي حجة السلطة التي هي: "حجج عدة تغذوها هيبة المتكلم ونفوذه وسلطته"(١)، فهي مجموعة من الحجج المكملة التي تتكاتف مع حجج أخرىٰ قد تكون هذه الأخرىٰ أقوىٰ منها لكنها تزيد من ثبات موقف المتحدث وأخذه بزمام الأمور في يده؛ فمنها الشخصيات التي يستدل بها المتحدث للتعزيز من كلامه وتقويته كما كان "الحجاج" يذكر ملوك بني أمية في حديثه تعضيدا لما يقول ويفعل: " وإنّ أميرَ المُؤمنين نثر كِنَانته بين يديه "، ومنها الاستشهاد بالقرآن والحديث: " إنَّ اللّه تبارك وتعالىٰ نَعىٰ نبيّكم صلىٰ الله عليه وسلم إلىٰ نفسه فقال: " إنك مَيَتٌ وإنَهم مَيِّتون " وقال: " وما مُحمّد إلا رَسُولٌ قد خَلَتْ مِنْ قَبله الرُّسُل أفإنْ ماتَ أوْ قُتل أنقلبتم علىٰ أعْقابكم " فمات رسولُ اللّه صلىٰ الله عليه وسلم" أي بقوة النصوص المقدسة علىٰ أنها سلطة دينية يخضع أمامها كل أحد.

ج) الاتصال الرمزي:

أما ثالث هذه الوجوه فهو الاتصال الرمزي الذي يقوم علىٰ: "الترابط والاتصال الزمني بين الرامز والمرموز إليه فالعلاقة بينهما علاقة مشاركة"(٢)، فالمتحدث يتخذ من دلالات الرمز معينا يوصله إلىٰ ما يريد قوله والوصول إليه، لكن هذا النوع من التواصل لم يأت في خطب

(١) في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات ص٥٢.

(٢) نفسه ص٥٣.

"الحجاج"، وكأنه اكتفىٰ بالتعبيرات الصريحة؛ فهو في موقف سلطوي يبيح له أن يعبر بدلالات صريحة، وفي الوقت ذاته هو أبعد ما يكون من الخوف أو الوجل حتىٰ يلجأ إلىٰ الرمز في كلامه، ولو أن الرمز لا يلجأ إليه الخائف فقط وإنما هو تقنية تفيد في التواصل الحجاجي إذا حسن استخدامه.

ثالثا: الاستلزام الخطابي:

من وجوه الحِجاج التي بهت بها "الحَجَّاج" مخاطبيه الاستلزام الخطابي، وفيه "يجعل المتكلم سامعه يدرك من الدلالة ما يفوق المعنىٰ الحرفي للجملة"(١)؛ وهذا النوع أطلق عليه الإمام "الغزالي": "نمط التلازم" ويعرفه بقوله: "يشتمل علىٰ مقدمتين، والمقدمة الأولىٰ تشتمل علىٰ قضيتين، والمقدمة الثانية تشتمل علىٰ تينك القضيتين تسليمًا؛ إما بالنص أو بالإثبات، حتىٰ تستنتج منه إحدىٰ تينك القضيتين أو نقيضها" (٢) ، ومنه قول "الحجاج" عندما قتل "عبد الله بن الزبير" وارتجت مكة بالبكاء فصعد المنبر فقال: "ألا إن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة حتىٰ رغب في الخلافة ونازع فيها وخلع طاعة الله واستكن بحرم الله ولو كان شيء مانعا للعصاة لمنع آدم حرمة الجنة لأن الله تعالىٰ خلقه بيده وأسجد له ملائكته وأباحه جنته فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته وآدم علىٰ الله أكرم من ابن الزبير والجنة أعظم حرمة من الكعبة"، فقد جمع "الحجاج" بين المواقف ليؤثر في الناس فزاوج

(١) القاموس الموسوعي للتداولية، جاك موشر وآن ريبول، ترجمة مجموعة بإشراف عزالدين المجدوب، دار سيناترا المركز القومي للترجمة تونس، ٢٠١٠م، ص٢١٢.

(٢) المستصفي من علم الأصول، أبوحامد الغزالي، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولىٰ ، ١٤١٣ه، ج١ ص٣٣.

بين ما فعل "ابن الزبير" وما فعله أبونا "آدم" -عليه السلام- ليقيم الحجة علىٰ "ابن الزبير" ويبرر ما فعله به، وهذا الاستدلال من شأنه أن يلزم المخاطبين التسليم؛ لأن المخاطبين يعلمون أن أبانا "آدم" -عليه السلام- أفضل من "عبدالله بن الزبير"، والله تعالىٰ طرد "آدم" من جنته لما عصاه وأكل من الشجرة، فلا شيء علىٰ "الحجاج" إذاً حينما عاقب "ابن الزبير" علىٰ أفعاله، وقد قام د "محمد العمري" بعمل مقارنة بينهما يجمل أن أستأنس بها في هذا التحليل وهي كالآتي(١) :

ابن الزبير	آدم، وآدم > ابن الزبير
حبر هذه الأمة	خلقه الله وأسجد له الملائكة
الطمع في الخلافة	الأكل من شجرة الخلد
الخلافة	شجرة الخلد
مكة	الجنة، والجنة > من مكة
الدولة (الخليفة +الحجاج)	الله (خلع طاعة الله) + (التفويض الإلهي عند الأمويين)
القتل	الطرد من الجنة

وإن كان القياس هنا خاطئًا لأن أبانا "آدم" لم يف بعهد الله تعالىٰ إليه، أما "ابن الزبير" فلم يكن بينه وبين الأمويين عهد حتىٰ يستحق القتل جراء

(١) ينظر: في بلاغة الخطاب الإقناعي- مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية في القرن الأول نموذجا، د. محمد العمري، أفريقيا للشرق -بيروت لبنان، الطبعة الثانية ٢٠٠٢م، ص٨٦.

نكوصه عن هذا العهد، لكن سلطة "الحجاج" أمكنته من الغلبة في الحِجاج والجدال وإن كان القياس مفارقًا. وإن كانت العاطفة الدينية تجاه "ابن الزبير" بالإضافة إلىٰ الأحداث غائمة حول هذا القتال الذي دار داخل الحرم وأدىٰ إلىٰ ضرب الكعبة بالمنجنيق يجعلنا نتعاطف مع "ابن الزبير"، لكن الدكتور "محمود زيادة" ساق كثيرا من الأدلة التاريخية والعقلية جعلته يبرئ "الحجاج" في كثير من مواقفه تلك(١).

ويعد الاستلزام الخطابي من أقوىٰ الحجج في العملية الحجاجية وقد جاء في قول "الحجاج" وهو يحاجج أهل الكوفة في خطبة له: "زعمتم أني ساحر وقد قال الله تعالىٰ ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ﴾ [سورة طه: ٦٩] وقد أفلحت، وزعمتم أني أعلم الاسم الأكبر فلم تقاتلون من يعلم ما لا تعلمون" فقد فنّد أقوالهم وقلبها عليهم فأصبحت دليلا له لا دليلا عليه، وهذا بفضل قوة منطقه وبلاغة قياسه؛ فقد زعموا أنه ساحر والله تعالىٰ أخبر أن الساحر لا يفلح لكنه أفلح إذا من الصادق هم أم الله تعالىٰ؟ طبعا الله تعالىٰ هو الصادق وهم كاذبون، إذاً "الحجاج" ليس ساحراً كما زعموا، وبعد ذلك زعموا أنه يعلم اسم الله الذي إذا دعي به أجاب؛ فإن كان هذا قولكم بزعمكم فلا يعقل أن تقاتلوا رجلا يعلم بم ينتصر عليكم؛ إذاً أنتم مخطئون، وهذا ما يطلق عليه "الاستلزام التخاطبي"؛ فلا شك أن هذا الاستلزام هنا له دور فاعل في العملية الحجاجية.

(١) ينظر: الحجاج بن يوسف الثقفي رحمه الله المفترىٰ عليه، د. محمود زيادة، دار السلام القاهرة، الطبعة الأولىٰ ١٤١٥ه ١٩٩٥م، ص٦٣ وما بعدها.

رابعا: مواطن التأثير:

يعد التأثير وسيلة من وسائل الإقناع الذي هو الغاية العظمىٰ للحجاج، وقد انمازت اللغة العربية بتعدد مكامن التأثير فيها؛ فمنها التأثير اللغوي، ومنها التأثير البياني، ومنها التأثير التركيبي، بالإضافة إلىٰ تأثير وسائل التوكيد، وكل تأثير منها يتضمن أنواعًا عدة يمكن استنباط ما جاء منها في خطب "الحجاج" علىٰ النحو الآتي:

التأثير اللغوي:

تتعدد بدائل الاختيار اللغوي أمام الخطيب العربي؛ فمعجم اللغة العربية ثريّ بالألفاظ والمفردات، وهذا التعدد هو مناط التمييز بين خطيب وآخر، بين خطيب يستطيع أن يجلب المفردة التي تنهض بمراده وآخر عيي لا يحسن اختيار مفرداته، و"الحجاج" من بلغاء العرب وفصحائهم المعدودين يستطيع أن يسوق المفردات التي يحاجج بها خصومه فتبهتهم من حيث لا يشعرون، وما ذاك إلا لقوة مفرداته التي تساوقت مع قوة جنانه ومراده، فهو القائل: "إنّي واللّه يأهل العِراق، ومَعْدِنَ الشِّقاقْ والنِّفاق، ومَسَاوِي الأخلاق، لا يُغْمَز جانبي كَتغْماز التّين، ولا يُقَعْقع لي بالشِّنان، ولقد فُرِزْتُ عِن ذكاء، وفُتشت عن تَجْربة، وأجْرِيت إلىٰ الغاية القُصْوىٰ، وإنّ أميرَ المُؤمنين نثر كِنَانته بين يديه، ثم عَجَم عِيدانَها، فَوَجدني أمرَّها عُوداً، وأشدَّها مَكْسِراً، فَوَجهني إليكم، ورَماكم بي" فمفرداته: **مَعْدِنَ الشقاق، يُقَعْقع لي بالشِّنان،** ..." ، لمما يكاد سنا برقها يذهب بالأبصار، فعبر بالشقاق تلك المفردة الثقيلة في نطقها لتتساوق مع ثقل جريمتهم، ولم يعبر بالفراق الخفيفة علىٰ اللسان والجنان، وقال: "لا يقعقع لي بالشنان" ويقصد أنه لا يروع ولا

يخدع، فقد أحسن "الحجاج" اختيار مفرداته التي تلقي الرعب والاضطراب في قلوب مستمعيه فتنقاد له القلوب خوفًا ورهبة، بجانب الاستعانة بأفعل التفضيل: أمرها، وأشدها للتأكيد علىٰ فكرته المحورية من أنه من أمكر العرب ومن أشدهم بأسًا، فقد فتش الخليفة في أعوانه واختار لهم أشدهم وأقواهم ليرميهم به، وها هو كما رماهم الخليفة به يرميهم هو بكلماته وجلامده.

ثم يكمل بعدها بتهديده الصارم: "والله لألحونكم لحو العصا ولأقرعنكم قرع المروة ولأعصبنكم عصب السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل"، فهاته الكلمات المتتابعة التي تشبه المطر الهاطل العاصف، والمؤكدة بالقسم وما تبعه من أدوات التأكيد نزلت علىٰ المتلقين نزول الرعود الصواعق والبروق الخواطف مما جعل أهل الكوفة ينكمشون في أطمارهم ويصغرون في أماكنهم ويكبكبون في أنفسهم تكبكب أعواد القش في الليلة العاصفة المطيرة، وهذا ما يجعلنا نرىٰ تبدل أحوال أهل العراق التي انتظم سيرها بعد فوضىٰ وهادن أهلها بعد نكوص، فلم يشاغبوا أو يثوروا طوال مدة حكمه.

واستخدم "الحجاج" فيما استخدام من ألفاظ دالة لفظة "تزعمون" في خطبه فقال: "يا أهل العراق، تزعمون أنَّا من بقية ثمود، وتزعمون أني ساحر، وتزعمون أنَّ الله عزَّ وجل علَّمني اسمًا من أسمائه أقهركم به، وأنتم أولياؤه بزعمكم وأنا عدوه، فبيني وبينكم كتاب الله تعالىٰ"، وقال: " أتزعمون أني شديد العقوبة وهذا أنس حدثني أن رسول الله قطع أيدي رجال وأرجلهم وسمل عيونهم"، فهذه الكلمة استخدمها العرب في معرض الادعاء الباطل

فقد قالوا: "وفي المثل زعموا مطية الكذب"(١)، فاستخدمها "الحجاج" هنا بما لها من دلالات تشي بالكذب والافتراء ليبين لهم بطلان رأيهم وخطأهم في حقه.

التأثير البياني:

ثمة علاقة وطيدة ومباشرة بين التأثير البياني والحجاج؛ فالإجراءات البيانية التي يجري بها الخطيب كلامه تزيده قوة فوق قوة المنطق، فهذه الإجراءات تحرك قوتي الخيال والمنطق المستكنتين في الجملة لتكونا أتم ما تكونا ظهوراً، بالإضافة إلىٰ أنها تثير العواطف وتستميلها، لكن الجانب الأظهر فيها هو تجسيد الصورة وجعلها مرئية أمام المتلقين حتىٰ إنها لتأخذ بألبابهم وعقولهم وتخطف أبصارهم من هول ما يشعرون جراء هذي الصورة.

ومازالت صور "الحجاج" البيانية مضرب المثل بين الخطباء والكتاب؛ وما ذاك إلا لقوة صوره وإحكام علاقاته ودلالة كناياته وبلاغة استعاراته، وقد كثرت صوره البيانية في خطبه واستعان بها في دعواه وحِجاجه، ومن هذه الصور استعارته الشهيرة في خطبته في أهل الكوفة: "وإني لأري أبصارا طامحة وأعناقا متطاولة ورءوسا قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها" وهي استعارة بليغة لا يكاد يخلو كتاب من كتب البلاغيين منها، فقد كانت أساسا بنوا عليه كتبهم في توضيح معنىٰ الاستعارة وأبوابها، فقد ألقاها قذيفة في وجه

(١) مغني اللبيب، ابن هشام الأنصاري، تحقيق: د.مازن المبارك ومحمد علي حمدالله، دار الفكر - بيروت، الطبعة السادسة ١٩٨٥م، ص٥٢٥.

المتلقين كانت أشد وقعا عليهم من ضرب الحسام جعلتهم يتحسسون أعناقهم ويطمئنون علىٰ رءوسهم، فهذا تهديد بالقتل "مع سبق الإصرار والترصد"، وفي الوقت ذاته تفيد هذي الاستعارة سهولة القتل عنده فكما أنه من السهل أن يقطف الإنسان الثمرة فكذلك القتل عنده، ولاشك أن هذا مما يلقي بالرهبة والخوف في قلوب المخاطبين فيلزمهم الانقياد لأمره وعدم مناوأته في قابل أيامهم.

ويرشح استخدام الصورة أنها تقدم دلائل واضحات علىٰ المعنىٰ المراد؛ ومن ذلك قوله مخاطبًا أهل الكوفة: "ولقد فررت عن ذكاء وفتشت عن تجربة وجريت إلىٰ الغاية القصوىٰ وإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدني أمرها عودا وأصلبها مكسرا فرماكم بي" فقد أثبت لنفسه القوة والغلبة علىٰ باقي القواد وأنه بزهم صلابة وشدة ومرارة، فهو السهم النافذ الذي خرج من كنانة الخليفة موجها إليهم، فكانت هذه الصورة القوية دليل غلبته.

وقد كان "الحجاج" يتخذ الصورة البيانية متكئا يخول له أن يفعل بمخاطبيه ما يريد دون أن يعترض عليه أحد، وذلك لقوة الصورة ومنطقها، فقوله في خطبته بعد دير الجماجم: "يأهل العراق إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والأعضاء والشغاف ثم أفضي إلىٰ المخاخ والأصماخ ثم ارتفع فعشش ثم باض وفرخ فحشاكم نفاقا وشقاقا وأشعركم خلافا اتخذتموه دليلا تتبعونه وقائدا تطيعونه ومؤامرا تستشيرونه" فهاته الصور المتتابعة تؤسس له أن يرميهم في قعر بئر أسود حتىٰ يموتوا كدا وجوعا وغما ولا يُؤاخذ بما يفعل؛ فقد صيرتهم هذه الصور

شياطين في صورة بشر؛ فالإنسان الذي ملك الشيطان عليه لحمه ودمه وعصبه وسمعه وشغاف قلبه ومخه وأذنه، وحشاه نفاقا وشقاقا وخلافا، وصار تابعا له منقادا لأمره لا يبقي له من بشريته شيء، بل يصير مسخا ممسوخا مشوها، وهذا يسوغ "للحجاج" أن يفعل بهم ما يشاء، فالتهويل الذي أحدثته الصور البيانية هذه كان له دور فاعل في حِجاج "الحجاج"، ومثلت بواعث دفعته إلىٰ عقابهم وأخذهم بالشدة والحسم وهو في هذا معتمد علىٰ قوة بيانه وصرامة صوره.

التأثير التركيبي:

اعتمد الحجاج في خطابته علىٰ التراكيب التي تأخذ بألباب المتلقي، بل وتسد الطريق أمامه فلا يجد توجها إلا ما أراده الحجاج فقط، ومن التراكيب التي استخدمها بكثرة في خطبه "الإطناب بتتابع العطف" مثل قوله: ": يا أهل العراق إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف.." وقوله: " يا أهل العراق: الكفرات بعد الفجرات، والغدرات بعد الختارت، والنزوة بعد النزوات، إن بعثناكم إلى ثغوركم غللتم وجبنتم، وإن أمنتم أرجفتم وإن خفتم نافقتم، لا تتذكرون نعمة، ولا تشكرون معروفاً. هل استخفكم ناكث أو استغواكم غاوٍ أو استفزكم عاصٍ أو استنصركم ظالم أو استعضدكم خالع إلا لبيتم ثم دعوته وأجبتم صيحته، ونفرتم إليه خفافاً وثقالاً وفرساناً ورجالاً؟" وقوله: " ما لي أرى عُلماءكم يُدهنون، وجُهالكم لا يَتعلمون، وشِرارَكم لا يَتُوبون"، وقوله: " أمَا والله إني لأحمل الشرّ بَحْملَه، وأحذوه بنَعْله، وأجْزيه بمثله، وإنّي لأرى رءوساً قد أيْنعَت وحان قِطافها، وإني لصاحبها، وإنِّي؛ أنْظر إلى، الدِّماء بين العمائم واللَحى تَتَرقرق"، وغير

ذلك من التراكيب التي حفلت بها خطبه، فاستخدم "الحجاج" تتابع العطف كنوع من التآخي بين الجمل ليحدث بينها اتصالا من شأنه أن يخطف قلوب مستمعيه، ولكأني بالمتلقين وقد تتابعت أنفاسهم بتتابع جمل التهديد التي يصبها "الحجاج" علىٰ آذانهم، ويقرع بها مسامعهم.

وكما استخدم "الحجاج" التتابع في العطف استخدم التتابع في الاستفهام الذي يستنكر به أفعالهم ويؤنب به ضمائرهم ويرمي به عقولهم، فيقول في خطبته بعد موقعة "دير الجماجم": " يا أهل العراق: هل شغب شاغب أو نعب ناعب أو زفر زافر إلا كنتم أتباعه وأنصاره؟! يا أهل العراق: ألم تنفعكم المواعظ؟ ألم تزجركم الوقائع؟ ألم يشدد الله عليكم وطأته ويذقكم حر سيفه وأليم بأسه ومثلاته؟!"، فيأخذ عليهم التبعية الهوجاء التي تورط صاحبها في المحن، في حين أن العراق لم تكن خلوا من الوعاظ والعباد، وأن الوقائع السابقة والأحداث الماضية فيهما من العبرة ما يمنعهم، فينعىٰ عليهم أن ثاروا عليه وعلىٰ الخليفة ولم يستمعوا إلىٰ صوت العقل.

وكذلك استخدم التتابع في الشرط فيقول: "أيها الناس من أعياه داؤه فعندي دواؤه ومن استطال أجله فعلي أن أعجله ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله ومن استطال ماضي عمره قصرت عليه باقيه إن للشيطان طيفا وللسلطان سيفا فمن سقمت سريرته صحت عقوبته ومن وضعه ذنبه رفعه صلبه ومن لم تسعه العافية لم تضق عنه الهلكة ومن سبقته بادرة فمه سبق بدنه بسفك دمه"، فأسلوب الشرط الذي يعتمد علىٰ المقدمات والنتائج، جعل النتائج متوقفة علىٰ حدوث المقدمات وهذا مما يسهم في إقناع المتلقي وإذعانه، وتتابعه يضاعف من أثره علىٰ المتلقي.

وكذلك اتبع "الحجاج" أسلوب الإطناب في حكاية الجرم حتىٰ إذا ما أنزل العقوبة وأغلظ فيها لا ينكر عليه أحد، وهذا متكرر بشكل ملحوظ في خطبه، مثل قوله في خطبته في أهل الكوفة: "لأنكم طالما أوضعتم في الفتن واضطجعتم في مراقد الضلال وسننتم سنن الغي..."، وفي خطبته وقد سمع تكبيرا في السوق: "يأهل العراق يأهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق وبني اللكيعة وعبيد العصا وأولاد الإماء والفقع بالقرقر إني سمعت تكبيرا لا يراد الله به وإنما يراد به الشيطان ألا إنها عجاجة تحتها قصف.."، وفي خطبته وقعة دير الجماجم: "يأهل العراق إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والأعضاء والشغاف ثم أفضي إلىٰ المخاخ والأصماخ ثم ارتفع فعشش ثم باض وفرخ فحشاكم نفاقا وشقاقا وأشعركم خلافا اتخذتموه دليلا تتبعونه وقائدا تطيعونه ومؤامرا تستشيرونه.." وبعدها يقول: " ألستم أصحابي بالأهواز حيث رمتم المكر وسعيتم بالغدر واستجمعتم للكفر وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته وأنا أرميكم بطرفي وأنتم تتسللون لواذا وتنهزمون سراعا ثم يوم الزاوية وما يوم الزاوية بها كان فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ونكوص وليكم عنكم إذ وليتم كالإبل الشوارد إلىٰ أوطانها النوازع، لا يسأل المرء عن أخيه ولا يلوي الشيخ علىٰ بنيه.." وغير ذلك كثير اعتمد عليه "الحجاج" في البناء والتأسيس لما سيواجه به مخاطبيه، لذا كانت قراراته حاسمة منذرة غاشمة لأنه واجههم بأفعالهم أو بالأحرىٰ بأخطائهم فلم يستطيعوا أن يدافعوا عن أنفسهم أو يردوا علىٰ كلامه.

ويعد الإطناب في إثبات صفات القوة والحزم لنفسه من آكد أدوات العملية الحجاجية؛ فهي نوع من الترهيب غير المباشر إذ لم يوجه التهديد لهم، لكنه تأسيس لتهديد مباشر يأتي بعده، وهذه صيغة استعملها "الحجاج" بكثرة متواترة في خطبه فيقول: "ولقد فررت عن ذكاء وفتشت عن تجربة وجربت إلىٰ الغاية القصوىٰ وإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدني أمرها عودا وأصلبها مكسرا" فهذه الصفات تحمل دلالات قوية تجعل المتلقين يعرفون قدر من يكلمهم، فإذا قال لهم بعدها: "فرماكم بي لأنكم طالما أوضعتم في الفتن واضطجعتم في مراقد الضلال وسننتم سنن الغي أما والله لألحونكم لحو العصا ولأقرعنكم قرع المروة ولأعصبنكم عصب السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل" آمنوا واستسلموا لما يريد، ومثل هذا قوله: "إني أنذر ثم لا أنظر وأحذر ثم لا أعذر وأتوعد ثم لا أعفو.." فهو يعدد الصفات التي هو عليها ليسدد بها رميته الآتية: "إن الحزم والعزم سلباني سوطي وأبدلاني به سيفي فقائمه في يدي ونجاده في عنقي وذبابه قلادة لمن عصاني والله لا آمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه" وهذه الصيغة مبثوثة في خطبه بشكل مائز مما يجعلها نهجا اتخذه "الحجاج" نوعا من بث الرعب والرهبة في قلوب مستمعيه فينصاعوا لأمره غير ناظرين إلا لبطشه وصفاته هاته.

خامسا: التوكيد ووسائله:

ذهب "الحجاج" إلىٰ أهل العراق وهو يعلم مناوأتهم وعداوتهم لبني أمية، وأنهم سينكرون عليه القول، فكان من الفطنة اللغوية أن يؤكد كلامه

بشتىٰ أنواع المؤكدات اللغوية؛ فهم بمنزلة المنكر، والبلاغيون أوجبوا أن يتضمن الكلام من المؤكدات بحسب حالة المخاطب وأقواها يكون للمنكر: "فالمتكلم إن كان خالي الذّهن من الحكم، والتردّد فيه: استغنىٰ عن مؤكّدات الحكم. وإن كان متردّدا فيه، طالبا له: حسن تقويته بمؤكّد، وإن كان منكرا: وجب توكيده بحسب الإنكار"(١)، لذا استخدم "الحجاج" مع مخاطبيه أقوي المؤكدات اللغوية في خطبه؛ ومنها قوله:

"يأهل العراق إن الشيطان قد استبطنكم..."

"أما والله لو أدركته لضربت عنقه.."، "وإني والله لا أعد إلا وفيت.."

"أما والله لألحونكم لحو العصا ولأقرعنكم قرع المروة ولأعصبنكم عصب السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل.." فقد استخدم من أدوات التأكيد: "إن، وقد، واللام، والقسم، ونون التوكيد، واسمية الجملة، والتوكيد بترادف الجمل، وأسلوب القصر، والمفعول المطلق" فتعددت وسائل التوكيد لتعدد جهات الإنكار عندهم؛ فهم قوم اجتمعت فيهم كراهية الحكم الأموي، وكراهية الحجاج نفسه، بجانب المشاعر الإيجابية تجاه آل البيت النبوي –رضي الله عنهم– فهم قريبو عهد بمذبحة الحسين وذويه، و"الحجاج" يعلم هذا كله فحشد لهم من أنواع التوكيد ما يدفع هذا الإنكار.

(١) الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، إبراهيم بن محمد بن عربشاه عصام الدين الحنفي ، حققه وعلق عليه: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ج١ ص١٦.

سادسا: السلم الحجاجي:

لا شك أن التصاعد بالحجج يعد تمهيداً للعاقبة المنتظرة، وفي الوقت ذاته يقابله تصاعد بشعور الخوف والقلق عند المتلقي، وهذا التصاعد بالحجج هو ما يطلق عليه: السلم الحجاجي الذي يعرف بقولهم: "عبارة عن مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية ومُوَفّية بالشرطين التاليين:

أ- كل قول يقع في مرتبة ما من السلم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلىٰ جميع الأقوال التي دونه.

ب- كل قول كان في السلم دليلا علىٰ مدلول معين، كان يعلوه مرتبة دليل أقوىٰ عليه"(١)

كما يتميز السلم الحجاجي بجملة من القوانين منها:

١ – "قانون الخفض: مقتضىٰ هذا القانون أنه إذا صدق القول في مراتب معينة من السلم، فإن نقيضه يصدق في المراتب التي تقع تحتها.

٢- قانون تبديل السلم: مقتضىٰ هذا القانون الثاني أنه إذا كان القول دليلا علىٰ مدلول معين، فإن نقيض هذا القول دليل علىٰ نقيض مدلوله.

٣- قانون القلب: مقتضىٰ هذا القانون الثالث أنه إذا كان أحد القولين أقوىٰ من الآخر في التدليل علىٰ مدلول معين، فإن نقيض الثاني أقوىٰ من نقيض الأول في التدليل علىٰ نقيض المدلول"(٢)، وقد نحا أصحاب الدراسات السابقة منحىٰ شأنه أن يقسموا الخطب إلىٰ مجموعة من السُّلمات الحجاجية، وما دفعهم إلىٰ ذلك إلا أنهم وجدوا ما ظنوه نتائج بينية تتخلل

(١) اللسان والميزان ص٢٧٧.

(٢) اللسان والميزان ص٢٧٧ وما تليها.

أجزاء الخطبة، أو ما ظنوه نتائج مضمرة مستقاة من بعض المقدمات يصلح أن يكون سلما حجاجيا قائما بذاته، ومن النتائج البينية بحسب زعمهم ما ورد في خطبته في أهل الكوفة: " فرماكم بي"، وقوله: "والله لألحونكم لحو العصا ولأقرعنكم قرع المروة ولأعصبنكم عصب السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل"، وقوله: "فإياي وهذه الشفعاء والزرافات والجماعات وقالا وقيلا وما تقول وفيم أنتم وذاك" وقوله: "وإني أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه وأنهبت ماله وهدمت منزله "، ومن النتائج الضمنية بحسب زعمهم أيضا: "صورة الحجاج بعد كشف غطاء وجهه، التهديد الذي وجهه إليهم، وأحقيته في الولاية، وتنفيذ تهديده"(١). لكنني أرىٰ أن الخطبة كلها حينما نأخذها علىٰ أنها سُّلمة واحدة يكون ذلك أجدىٰ في البناء الحجاجي؛ حيث تنبني السُّلمات الحجاجية بناءً ناميًا يتصاعد نحو الذروة الحجاجية، أما عند تفكيك السلم الحجاجي إلىٰ بناءات متعددة فهذا يضعف البناء الحجاجي، وعلىٰ هذا يمكن استخلاص هذه التراتبيات من خطبة "الحجاج" في أهل الكوفة ليظهر أثرها في البناء الحجاجي عنده علىٰ النحو الآتي: والله لتستقيمن علىٰ طريق الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا في جسده

(١) ينظر: بنية الملفوظ الحجاجي للخطبة في العصر الأموي، رسالة التخصص للطالبة خديجة محفوظي، كلية الأداب واللغات جامعة منتوري قسنطينة٢٠٠٧م، ص٦٩ وما بعدها، وينظر: آليات الحجاج في خطب الحجاج دراسة تداولية، سالة التخصص للباحث محمد شكيمة، كلية الآداب واللغات جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي، عام ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦ م، ص١٠٩ وما بعدها.

والله لألحونكم لحو العصا ولأقرعنكم قرع المروة ولأعصبنكم عصب السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل

وإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدني أمرها عودا وأصلبها مكسرا فرماكم بي

لا بد مما ليس منه بد

وإني لأري أبصارا طامحة وأعناقا متطاولة ورءوسا قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ... متى أضع العمامة تعرفونى

دخل المسجد معتما بعمامة قد غطي بها أكثر وجهه متقلدا سيفا متنكبا قوسا يؤم المنبر.

فعلىٰ النحو السابق تكتمل أجزاء السلم الحجاجي علىٰ أتم ما يكون تمامه؛ بدءاً من دخوله المسجد ملثما، وعدم بدء الخطبة بالحمد والصلاة، ثم التهديدات المتتابعة منه، وصولا إلىٰ النتيجة النهائية حيث سدّ عليهم كل الأبواب وحيزهم في نطاق واحد وهو إما الاستقامة أو العقاب الرادع.

وتعد خطبته عندما أراد الحج واستخلف ابنه "محمدا" علىٰ أهل "العراق" من أدلّ الخطب التي تظهر البنية الحجاجية المتحدة وفيها يقول: "يأهل العراق يأهل الشقاق والنفاق إني أريد الحج وقد استخلفت عليكم ابني محمدا هذا وما كنتم له بأهل وأوصيته فيكم بخلاف ما أوصىٰ به رسول الله في الأنصار إن رسول الله أوصىٰ أن يقبل من محسنهم وأن يتجاوز عن مسيئهم وإني أمرته ألا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم ألا وإنكم ستقولون بعدي مقالة ما يمنعكم من إظهارها إلا مخافتي ألا وإنكم ستقولون بعدي لا أحسن الله له الصحابة ألا وإني معجل لكم الإجابة لا أحسن الله

الخلافة عليكم ثم نزل"، فهذه الخطبة وحدة متكاملة أو سلمة حجاجية متراتبة الحجج علىٰ النحو الآتي:

لا أحسن الله الخلافة عليكم
لا أحسن الله له الصحابة
وإنكم ستقولون بعدي مقالة ما يمنعكم من إظهارها إلا مخافتي
ألا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم
وأوصيته فيكم بخلاف ما أوصى به رسول الله في الأنصار
وما كنتم له بأهل
إني أريد الحج وقد استخلفت عليكم ابني محمدا

وهكذا يتضح أن الخطبة كلها سلم حجاجي تترتب حيثياته ترتيبا تصاعديا تأخذ إحداها بحجز أختها صعودا إلىٰ أن تؤدي كلها إلىٰ نتيجة واحدة: "لا أحسن الله الخلافة عليكم"، فترتيب أجزاء الكلام عنصر من عناصر البناء الحجاجي، وله دوره الفاعل في الإقناع، والسلم الحجاجي هو التمثيل الحسي لهذا الترتيب؛ فبه تتضح أهمية ترتيب أجزاء الكلام إذ يوثق عرىٰ الجمل الحجاجية علىٰ أساس من السببية أو الاحتمالية اللتين هما سببا الإقناع.

ومن السلالم الحجاجية التي تثير العقول نتيجة إضمار النتيجة الحجاجية قوله: "يأهل العراق بلغني أنكم تروون عن نبيكم أنه قال من ملك علىٰ عشر رقاب من المسلمين جيء به يوم القيامة مغلولة يداه إلي عنقه حتىٰ يفكه العدل أو يوبقه الجور وايم الله إني لأحب إلىٰ أن أحشر مع أبي بكر وعمر

مغلولا من أن أحشر معكم مطلقا"، فهذه القالة علىٰ قصرها تحمل بين طياتها إقناعا قياسيا علىٰ النحو الآتي:

من أن أحشر معكم مطلقا

وايم الله إني لأحب إلى أن أحشر مع أبي بكر وعمر مغلولا

حتى يفكه العدل أو يوبقه الجور

الزعم بأن من ملك على عشر رقاب جيء به يوم القيامة مغلولة يداه إلي عنقه

فقد زعم أهل العراق أن الحكم يوبق "الحجاج" لأنه ظالم، فرد عليهم زعمهم بقياس حجاجي مفاده أن سيدنا أبا بكر وسيدنا عمر كانا حاكمين ومع ذلك هما ليسا ممن يداهما مغلولتان إلىٰ عنقهما، فلا يدخلان في نطاق زعمهم، فكذلك هو حاكم وليست يداه مغلولتين إلىٰ عنقه، وعلىٰ هذا تكون الذروة الحجاجية المقدرة: الحكم لا يوبق صاحبه، وقد كان "الحجاج" فطنا عندما ضرب المثل بالشيخين: "أبي بكر وعمر" –رضي الله عنهما– اللذين لا يتطرق إليهما الشك، وخلع علىٰ نفسه عباءة لبساها من قبله، وبالقياس يلحق نفسه بهما أمام المخاطبين.

وبعد استقراء خطب "الحجاج" يمكن القول بأن السلم الحجاجي لا تكاد خطبة من هاته الخطب تخلو منه؛ إذ كان حصيفا في اختيار الأسلوب الأمثل الذي يؤثر علىٰ المتلقين عقليا وشعوريا؛ "فالخطابة العربية كانت إلىٰ نهاية القرن الأول الهجري خطابة التأثير النفسي بالترغيب والترهيب،

وخطابة أسلوب وعبارة"[1]، والسلم الحجاجي من شأنه التأثير والإقناع؛ لذا حرص "الحجاج" علىٰ ترتيب أجزاء خطبته ترتيبا تصاعديا نحو النتيجة الحجاجية التي يريدها وهذا ما أطلق عليه حديثا: "السلم الحجاجي".

(١) في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص٨٠.

المبحث الثاني: من آليات الحجاج: التناص

ثمت علاقة وطيدة بين الحجاج والتناص؛ ذاك أن التناص يعد آلية مقاربة من آليات الحجاج التي يتكئ عليها المحاجِج للسيطرة علىٰ مجريات الكلام، فبه يسترفد من معارفه ما يعينه علىٰ الوصول إلىٰ مراميه التي يقصدها من كلامه؛ وبخاصة حين يسترفد معلومًا مشتركا بينه وبين المتلقين؛ كالآيات والأحاديث وما أثر من بليغ الكلم ليمزج ما يقول بما قيل ليكوّنا نصًا جديداً له خصائصه وتأثيراته، فالتناص كما عرفه د "محمد مفتاح": "هو تعالق "الدخول في علاقة" نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة"(١)، فمحددات التعريف تتمفصل في العلاقة بين النصين، وكيفيات العلاقة، لكن فائدة التناص لا تتحدد بمجرد التشابه ببين النصين إن في الشكل وإن في المضمون فذاك لا يظهر فائدته، وإنما تتحدد بما يقدمه النص المجتلَب إلىٰ النص الحالي من تأثير عقلي أو عاطفي، إذ إن من يعتمدون علىٰ التناص "يكتبون من فيض هذا المخزون الثقافي في ذاكرتهم كأفراد، وفي ذاكرة اللاوعي الجمعي لمجتمعاتهم"(٢)، فهذه الأقوال التي تعمدوا التناص معها هي في أصلها قارة في أذهان المتلقين وبمجرد استدعائها في النص

(١) تحليل الخطاب الشعري استراتيجية التناص، د. محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، الطبعة الثالثة ١٩٩٢م، ص١٢١.

(٢) الخطيئة والتكفير من البنيوية إلىٰ التشريحية، عبدالله محمد الغذامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب٢٠٠٦ م، ص٥٨.

الجديد تظهر ماثلة في عقولهم وقلوبهم فيقع التأثير العقلي والعاطفي وهذا هو المقصود الأول للمحاجج.

ولئن كانت النصوص المجتلبة تمثل عوامل مساعدة في الحديث فإنها في العملية الحجاجية تزيد علىٰ ذلك وتمثل منطلقا وقاعدة يتكئ عليها المحاجج، وهذا ما اعتمد عليه "الحجاج" حين عمد إلىٰ اجتلاب النصوص السابقة في خطبه علىٰ ما يأتي:

فقد علم "الحجاج" أن المتلقين قد حشدوا له جميع قواهم العقلية والعاطفية رفضًا وصداً، فهم لن يقبلوا منه حكما أو يرتضوا له قراراً، فاجتلب لهم من معارفه ما يواجه به عقلهم وأهواءهم؛ إذ يجب علىٰ الخطيب "أن يهاجم الرأي فتخضع بخضوعه الإرادة كحالها مع القاضي، وإما أن يهاجم الإرادة فيخضع بخضوعها الرأي كحالها مع الجمهور"[1]، فاعتمد "الحجاج" في خطبه علىٰ التعالق مع الآيات القرآنية؛ إذ آيات القرآن الكريم تحمل في طياتها بجانب قوة المعنىٰ المراد منها قوىٰ أخرىٰ تتعلق بقداسة القرآن الكريم عند المسلمين -وهم الجمهور المستهدف لخطبه- وهي قوىٰ التسليم والإذعان وهذا ما يريده الحجاج حتىٰ يجمع ملاك الأمور كلها في يده، ويحاصر المتلقين فكريا وعاطفيا؛ إذ إن سلطة النص الديني تسقط أمامها كل النصوص ولا يملك الإنسان حيالها إلا الإذعان والائتمار بها وذاك كله مما لم يفت علىٰ "الحجاج" إدراكه ووعيه، ومن ثمّ يستطيع أن يصرفهم عن وجهتهم التي يولونها ويوجههم إلىٰ قبلته هو، وهو ما نستطيع أن نطلق

---

[1] دفاع عن البلاغة، أحمد حسن الزيات، مطبعة الرسالة ١٩٤٥م، ص٢٢.

عليه محاصرة المتلقي، ومن هنا انفتحت نصوص "الحجاج" علىٰ نصوص القرآن الكريم وتدثرت بها فأكسبتها تأثيرا فوق تأثيرها النابع من قوة بيانها وخيالها، فيقول:

"يا أهل العراق، تزعمون أنَّا من بقية ثمود، وتزعمون أني ساحر، وتزعمون أنَّ الله عزَّ وجل علَّمني اسمًا من أسمائه أقهركم به، وأنتم أولياؤه بزعمكم وأنا عدوه، فبيني وبينكم كتاب الله تعالىٰ. قال " عز وجلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [سورة هود:٦٦] بقية الصالحين إن كنَّا من ثمود. وقال جلّ وعز: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ٦٩﴾ [سورة طه:٦٩] " والله أعدل في حكمه من أن يعلّم عدواً من أعدائه اسمًا من أسمائه يهزم به أولياءه"، فنجده يدخل المعنىٰ الذي يريده تحت عباءة المعنىٰ القرآني، فهو يخاطب أهل الكوفة ناقضًا ادعاءاتهم، ومحكما كتاب الله بينهم حتىٰ لا يستطيع أحد منهم الاعتراض أو الرد عليه فقال: "فبيني وبينكم كتاب الله" لكي لا يكون لهم حجة بعد ذلك، فنقض زعمهم بالقرآن حين زعموا أنه بقية من ثمود بقوله تعالىٰ: "فلمَّا جاء أمرنا نجَّينا صالحًا والَّذين آمنوا معه" ونقض زعمهم بأنه ساحر بقوله تعالىٰ: "إنّما صنعوا كيد ساحرٍ ولا يفلح الساحر حيث أتىٰ"، فاستعارة النص القرآني هنا يقصد به أن "يطوق المتلقي فكريا عبر رصيده المعرفي علىٰ اختلافه وتنوعه، فتغدو العلاقة الحجاجية تجربة خاصة تعتمد علىٰ القوة الذاتية للمحاجج بخطاب ذي بعد سلطوي؛ إذ "تسهم هذه الآلية في رفع ذات المخاطب إلىٰ درجة أعلىٰ وبالتالي منحها قوة سلطوية بالخطاب عند التلفظ

في أصله، عندها يتبوأ المخاطب بخطابه مكانة عليا، ويستمد ذلك من سلطة الخطاب المنقول علىٰ لسانه، وبالتالي تصبح السلطة هي سلطة الخطاب الذي يتوارىٰ المخاطب وراءه[١]"، ومن هنا تتضح أهمية التناص في القيام بالوظيفة التي يعتمد عليها الحِجاج؛ فنظرية الحِجاج "تدور حول كونه ممارسة إقناعية خطابية ذات طبيعة عقلانية وفاعلية حوارية ووظيفة إيحائية"[٢]، ولا شيء أقدر علىٰ الإقناع من الإتيان بما تريد في سياق النصوص المقدسة، وهذه النصوص التي هي ليست من عنده وإنما أتىٰ بها علىٰ لسانه اقتباسا من القرآن الكريم علىٰ سبيل الاحتجاج بها، "فالحجج الجاهزة أو الشواهد هي من دعامات الحجاج القوية؛ إذ يصوغها المخاطب في الوضع المناسب، وهنا تتبدىٰ أهليته وبراعته في توظيفها بحسب ما تطلبه السياق، ويكمن تصنيفها في السلم الحجاجي بالنظر إلىٰ طبيعتها المصدرية، فهي ليست من إنتاج المخاطب بقدر ما هي منقولة علىٰ لسانه، ونقلها علىٰ لسانه ينبئ عن كفاءته التداولية؛ إذ يكمن دوره في توظيفها التوظيف المناسب في خطابه، وبهذا فهي تعلو الكلام العادي درجة مما يجعلها ترقىٰ في السلم الحجاجي إلىٰ ما هو أرفع"[٣]، وهذا ما غلب به "الحجاج" أهل الكوفة وألزمهم به الإذعان؛ إذ أتىٰ بدلائل مقدسة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا

---

[١] آليات الحجاج وأدواته عبد الهادي بن ظافر الشهري، الجزء ١ ص١٢٨وما تليها.

[٢] النص الحجاجي عند سهل بن هارون رسالته في البخل نموذجًا، فاطمة عويس، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد ٨٠ العدد ٤ أبريل ٢٠٢٠م، ص٢٤٠.

[٣] آليات الحجاج وأدواته، عبد الهادي بن ظافر الشهري، الجزء ١ ص١٢٨.

من خلفها فهي تنزيل من حكيم حميد تثبت بطلان زعمهم عقليـًا وشعوريـًا فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين.

وكذلك قوله في خطبته لأهل الكوفة:

"ياأهل العراق إنما أنتم أهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأتاها وعيد القرىٰ من ربها فاستوثقوا واعتدلوا ولا تميلوا واسمعوا وأطيعوا وشايعوا وبايعوا، واعلموا أن ليس مني الإكثار والإهذار ولا مع ذلك النفار ولا الفرار إنما هو انتضاء هذا السيف ثم لا يغمد الشتاء ولا الصيف حتىٰ يذل الله لأمير المؤمنين عزتكم ويقيم له أودكم وصعركم"، فهو يستدعي قوله تعالىٰ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [سورة النحل:١١٢]، تذكيراً لهم بمآل هذه القرية التي كفرت، ثم يخاطب أهل الشام فيقول لهم:

"أنتم البطانة والعشيرة والله لريحكم أطيب من ريح المسك الأذفر وإنما أنتم كما قال الله تعالىٰ (وضرب الله مثلا كلمة طيبة) والتفت إلىٰ أهل العراق فقال والله لريحكم أنتن من ريح الأبخر وإنما أنتم كما قال الله (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة)"، وهو هنا يستدعي قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة إبراهيم: ٢٤-٢٦] ، فقد أجرىٰ موازنة بين أهل الشام وأهل

الكوفة مثل الموازنة التي ضربها الله للشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة علىٰ الترتيب الآتي:

الفعل	الفاعل	العاقبة	النسق القرآني
أنتم أهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله	أهل العراق	هو انتضاء هذا السيف ثم لا يغمد الشتاء ولا الصيف حتىٰ يذل الله لأمير المؤمنين عزتكم ويقيم له أودكم وصعركم	﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [سورة النحل: ١١٢]

الصفة	الموصوف	ضرب المثل	العاقبة	النسق القرآني
والله لريحكم أنتن من ريح الأبخر	أهل العراق	وإنما أنتم كما قال الله (ومثل كلمة	إني لأرىٰ رءوسا قد أينعت وحان	قوله تعالىٰ: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ

		خبيثة كشجرة خبيثة)	قطافها وإني لصاحبها والله لكأني أنظر إلىٰ الدماء بين العمائم واللحىٰ	خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ [سورة إبراهيم: ٢٦]
أنتم البطانة والعشيرة والله لريحكم أطيب من ريح المسك الأذفر	أهل الشام	وإنما أنتم كما قال الله تعالىٰ (وضرب الله مثلا كلمة طيبة)	.....	﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [سورة إبراهيم: ٢٤–٢٦]

الاستنتاج:

يوضح الجدول الفائت مدىٰ حرص "الحجاج" علىٰ احتذاء النسق القرآني الكريم في تراتبية العواقب علىٰ مقدماتها، إذ تشابهت الأفعال ومثل قوله تعالىٰ: "فكفرت بأنعم الله" العامل المشترك بين أهل العراق وأهل القرية، مما يوثق العرىٰ بين النتيجة المحتومة وأفعالهم كما ساقها القرآن الكريم: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ﴾ [سورة النحل: ١١٢] وقد

قوّىٰ النص القرآني تلك العواقب وأعطاها نفاذا في قلوب المستمعين أضحت به حقيقة مستقرة عندهم مما بث الذعر والرهبة في عقولهم وأفئدتهم، وبخاصة عند لمح القياس الحجاجي هنا؛ "فالقياس من الحجج شبه المنطقية التي تعتمد العلاقات الرياضية لتشكل خلفيتها العميقة ونسيجها الداخلي"[1]، فالأفعال المتشابهة تقتضي النتائج المتشابهة.

كما حرص "الحجاج" علىٰ ضرب الأمثال وهو باب دقيق المسلك له اليد الطولىٰ في ربط الأحداث بعضها ببعض؛ لذا استعان به "الحجاج" هنا ليتذرع به حين يقدم علىٰ العقوبة لأهل العراق، فوصفهم بالشجرة الخبيثة ولم يحتج إلىٰ أن يكمل الآية فالمسلمون يعلمون مآل الشجرة الخبيثة وهو الاجتثاث والمحو، فحينما يسمح المخاطب هذا المثل يقع في روعه النهاية المميتة، فساعد هذا المثل علىٰ ما أراده "الحجاج" من بث الخوف في قلوب المخاطبين، وعلىٰ الجانب الآخر يلتفت إلىٰ أنصاره وأنصار أمير المؤمنين من أهل الشام ويضرب لهم المثل بالكلمة الطيبة، واكتفىٰ في حالتهم بضرب المثل ولم يعقب بشيء ولم يسهب في إلانته الحديث لهم؛ إذ أراد مجرد الموازنة بين حالهم وحال أهل الكوفة فالمقام في الأصل مقام تهديد ووعيد للكوفيين.

تناص التضمين:

أ) تضمين الآيات:

تحدث قدماؤنا عن التضمين بين النصوص فقالوا: "وليس من الأبواب بابٌ إلاّ وقد يدخلُه نُتفٌ من أبوابٍ أُخرَ علىٰ قدْرِ ما يتعلّق بها من الأسباب

---

[1] الحجاج في الشعر العربي؛ بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، ص٢٠٣.

ويعرض فيه من التضمين ولعلك أن تكون بها أشدَّ انتفاعـًا"[1]، فيتضح من كلام "الجاحظ" أنه يشترط وجود علاقة بين النص الأول والنص الثاني حتىٰ يصح لك أن تأخذ منه وهذا ما قرره النقاد المحدثون إذ يقول د "رجاء عيد": "يشترط في التناص التضميني أن يكون ملائما للنسق الأدائي، وأن ينضام مع مصاحبات أدائية متداخلة"[2]، وقد كان "الحجاج" حصيفا لغويـًا حين أدرك حتمية هذه العلاقة التي تبيح له الاستشهاد بالنصوص السابقة فنجده يقول في خطبته إلىٰ أهل العراق بعد موقعة "دير الجماجم":

"يا أهل العراق إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف، ثم أفضىٰ إلىٰ الأصماخ والأمخاخ، ثم ارتفع فعشش، ثم باض وفرخ، ثم دب ودرج، فحشاكم نفاقـًا وشقاقـًا، وأشعركم خلافـًا، اتخذتموه دليلاً تتبعونه، وقائداً تطيعونه، ومؤامراً تشاورونه، فكيف تنفعكم تجربة أو ينفعكم بيان؟" فقد أراد "الحجاج" تعنيفهم لاتباعهم "عبدالرحمن بن الأشعث" ، ويبين لهم مدىٰ تسلط هذا الفكر الشيطاني عليهم مستوحيـًا قول الله تعالىٰ: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ

---

[1] الحيوان، الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل بيروت ، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م، ج٦ص١٥.

[2] القول الشعري؛ منظورات معاصرة، رجاء عيد (منشأة المعرف، الإسكندرية) ص ٢٣٢.

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورٗا ٦٤﴾ [سورة الإسراء:٦٤](١)، وكأن هذا الفكر سوط من سياط "إبليس" قد طوق به أعناقهم وجرهم إلىٰ الخروج علىٰ بني أمية، وقد أسهب "الحجاج" في تفصيل ما يقوم به الشيطان ليهول من الجرم الذي ارتكبوه وكأنهم يستحقون ما أنزل بهم من العقاب، ولا ملامة عليه في ذلك لأنه يعاقبهم بجرمهم.

وقد تأتي الآيات ظاهرات في خطبة "الحجاج" كقوله لما مات عبد الملك بن مروان: "أيها الناس إن الله تبارك وتعالىٰ نعي نبيكم إلىٰ نفسه فقال ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠﴾ [سورة الزمر:٣٠]وقال ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾ [سورة آل عمران:١٤٤] فمات رسول الله ومات الخلفاء الراشدون المهتدون المهديون منهم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان الشهيد المظلوم ثم تبعهم معاوية ثم وليكم البازل الذكر" فهذه الآية تعني ضمنا أن الموت ليس بعقاب يعاقب به الله من يكره، فالرسول –صلىٰ الله عليه وسلم– أحب الخلق إلىٰ الله تعالىٰ، إذن الموت يكون للحبيب كما يكون لغيره، إذن موت "عبدالملك بن مروان" ليس دليلا علىٰ كراهية الله له بل قد يكون اصطفاء من الله –تعالىٰ– ومرضاة علىٰ العبد.

(١) سورة الإسراء آية ٦٤.

تضمين الأشعار:

يعد التضمين من الوسائل المستعملة في العملية الحجاجية، أو كما يقول "أرسطو" من الحجج الجاهزة[1] التي يستعين بها المحاجج بغية تعضيد كلامه بكلام آخر ليكون أسرع رميا عند المخاطبين، وقد تعدد أنواع الاقتباسات في خطب الحجاج؛ منها الاقتباس من الشعر ليستعين به في الوصول إلىٰ مراميه، ففي خطبته في أهل الكوفة استفتح كلامه بقول "سحيم بن وثيل الرياحي"[2]:

أنـا ابـن جَـلا و طَـلاَعُ الـثَّـنَـايَـا متىٰ أضَــع العِمـامـةَ تَعْرِفُوني

وذلك بدلا من الاستفتاح بالبسملة والحمد، وإنما آثر الاستفتاح بهذا البيت الذي يبدأ بالضمير "أنا" الدال علىٰ الذات المتحدثة ليكون هو مركز التركيز، ويكون هو مصدر التهديد بعد ذلك، وقوله: "أنا ابن جلا"، إنما يريد المنكشف الأمر، ولم يصرف "جلا" لأنه أراد الفعل فحكىٰ، والفعل إذا كان فاعله مضمراً أو مظهراً لم يكن إلا حكاية، كقولك: تأبط شرا، وقوله:

---

[1] ينظر: الخطابة، أرسطو طاليس، تحقيق عبدالرحمن بدوي، وكالة المطبوعات الكويت، ودار القلم لبنان ١٩٧٩م، ص٩.

[2] هو سحيم بن وثيل بن أعيفر بن أبي عمرو بن إهاب بن حميري بن رياح بن يربوع، وضعه "ابن سلام" في الطبقة الثالثة من الشعراء الإسلاميين. ينظر: طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني – جدة، ج٢ ص٥٧١.

"وطلاع الثنايا" الثنايا: جمع ثنية والثنية: الطريق في الجبل"(١)، وإنما أراد "الحجاج" الاستفتاح بهذا التهديد المضمر تمهيدا للتهديد الظاهر بعد ذلك في بقية الخطبة.

وكذلك ضمن خطبته شعرا، لكنه ليس اقتباسا بل من قوله هو وذلك عندما فرح أهل العراق بموت ابنه "محمد" عسىٰ أن ينشغل عنهم وينكسر ظهره من الحزن والوجد علىٰ ابنه؛ فإذا به يصعد المنبر وقد بلغه فرحهم هذا فقال: "أيها الناس محمدان في يوم واحد أما والله ما كنت أحب أنهما معي في الحياة الدنيا لما أرجو من ثواب الله لهما في الآخرة وايم الله ليوشكن الباقي مني ومنكم أن يفنىٰ والجديد أن يبلي والحي مني ومنكم أن يموت وأن تدال الأرض منا كما أدلنا منها فتأكل من لحومنا وتشرب من دمائنا كما مشينا علىٰ ظهرها وأكلنا من ثمارها وشربنا من مائها ثم نكون كما قال الله تعالىٰ (ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلىٰ ربهم ينسلون) ثم تمثل بهذين البيتين "من الكامل":

عزائي نبي الله من كل ميت وحسبي ثواب الله من كل هالك

إذا ما لقيت الله عني راضيا فإن ســرور النفس فيما هنالك

وهكذا تنوع تضمين الخطب بعضا من أبيات الشعر سواء أكانت له أم لغيره لكنها جاءت في سياق المعنىٰ الذي يتحدث فيه "الحجاج" وساعدت في البناء الحجاجي الذي انتهجه.

(١) الكامل في اللغة والأدب، المبرد، تحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي – القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م، ج١ ص٣٠٠.

التناص المعاكس:

ميزت "جوليا كريستيفا" بين ثلاثة أنماط من الترابطات المغايرة بين المقاطع المقتبسة وأصولها وهي كالآتي:

" **أ- النفي الكلي:**

وفيه يكون المقطع الدخيل منفيا كلية ومعنىٰ النص المرجعي مقلوبا.

ب- النفي المتوازي:

حيث يظل المعنىٰ المنطقي للمقطعين هو نفسه، إلا أن هذا لا يمنع من أن يمنح اقتباس" لوتر يامون" للنص المرجعي معنىٰ جديداً معادياً للعاطفية والرومانسية التي تطبع الأول.

ج- النفي الجزئي:

حيث يكون جزء واحد فقط من النص المرجعي منفيا"(١)، وضربتْ "جوليا" لكل نوع مثالا يحدد التغاير بين النصين، وباستقراء خطب "الحَجَّاج" نجد أن النوع الأول من التناص المعاكس هو الذي ظهر في خطبه، وذلك مثل خطبته حينما أراد الحج واستخلف ابنه محمداً فقال: "أيها الناس، إني أريد الحج، وقد استخلفت عليكم ابني هذا، وأوصيته بخلاف وصية النبي صلىٰ الله عليه وسلم في الأنصار" فقد آثر أن يتبع أسلوب الصدمات المتتالية للسيطرة علىٰ المتلقين وإرهابهم، فاستعان بالنفي الكلي -وهو ما نستطيع أن نطلق عليه "التناص المعاكس"- مع كلام النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- ؛ إذ يمثل تعامل النبي مع المسلمين أرقىٰ درجات الرحمة، وحين يعكس الخطيب المعاني التي أتىٰ عليها كلام الرسول فإنه بذلك ينتقل بعواطف المتلقين من أعلىٰ درجات الرحمة إلىٰ أشنع دركات القسوة وأغلظها،

(١) علم النص، جوليا كرستيفا، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال للنشر/ الدار البيضاء الطبعة الثانية ١٩٩٧م، ص٧٦ وما تليها.

فيصبح نصه من قبيل النصوص المعادية التي تهدد المتلقي وترجفه، وعندما يستمع المتلقي كلام الحجاج ووصيته بخلاف رسول الله -صلىٰ الله عليه وسلم- فإنه يصدم ويقع في نفسه الويل والتوعد، ثم تأتي الصدمة الثانية فيقول: "فإنه أمر أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم. ألا وإني قد أوصيته أن لا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم" فاستعمل "الحجاج" التناص المعاكس ليبث اليأس والقنوط في قلوبهم، وقبل أن يسرّ بعضهم لبعض القول خوفًا ورهبة عاجلهم بقوله: "ألا وإنكم ستقولون بعدي: لا أحسن الله له الصحابة، ألا وإني معجل لكم الجواب: لا أحسن الله عليكم الخلافة"، وبالنظر إلىٰ الخطبة نجد أن الحجاج لم يعط فرصة للمتلقين أن يفيقوا من صدماته، بل تلقاهم بقذائفه الكلامية واحدة تلو الأخرىٰ حتىٰ أحبط عواطفهم بالقذيفة الأولىٰ، وخيب ظنهم بالقذيفة الثانية، وأسقط في أيديهم بالقذيفة الثالثة، وهذا الاستخدام لآلية التناص هنا يمثل دلالة واضحة علىٰ استيعاب "الحجاج" للإرث الثقافي الذي تمثله وقدمه بقراءة جديدة تعضد وجهة نظره وتبث الرهبة في قلوب المتلقين.

وتتبدىٰ قوة حجج "الحجاج" السابقة من قوة الآيات والأحاديث التي دلل بها علىٰ منطقه؛ "إذ تكتسب الحجج قوتها من قوة مصادرها"(١)، فهي نصوص لها من القداسة في قلوب مستمعيه ما يحملهم علىٰ الرضوخ لما يريده، وقد ظهر ذلك في المواقف التي انبرىٰ عنها المستمعون بعد انتهاء خطبه، فلم يجرؤ أحد من أهل العراق مناوأته أو الخروج علىٰ الأمويين زمن حكمه عليهم.

(١) آليات الحجاج وأدواته، عبد الهادي بن ظافر الشهري، الجزء ١ ص١٣٥.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، وصلاة وسلاما علىٰ سيدنا محمد الصادق الأمين وعلىٰ آله وجميع المسلمين، وبعد..

فقد تغيرت لدي مفاهيم عدة بعد هذه الدراسة حول خصائص اللغة العربية ودقائق نظامها وطواعية أدواتها؛ فمهما نظر المنظرون الغربيون منهم والشرقيون، القدماء منهم والمحدثون من رؤىٰ وفلسفات وأفكار نجد في تراثنا اللغوي البياني الأدبي ما ينهض بهذا كله دون صعوبة تصد أو عسير يرد، بل إننا نجد في نصوصنا ما يجعلنا نرجح بدرجة كبيرة أن هؤلاء المنظرين استقوا جلّ نظرياتهم هذه من تراثنا المجيد، وإلا كيف أننا نجد نصوصنا تتمثل رؤاهم وأفكارهم بهذا الشكل المائز، وكيف أنه يمكننا تطبيق هذه المناهج الحديثة علىٰ نصوص تراثنا دون لي لعنق أو تحميل ما لا يحتمل، تُرىٰ أهو التقارب اللغوي في أصل الفلسفة اللغوية فقط هو الجامع بينهما أم أن لغتنا استوعبت خصائصها خصائص سائر اللغات الأخرىٰ فهي ناهضة بها وبأفكارها؟ الأمر جدُّ عجيب، ويحتاج إلىٰ مشروع بحثي موسع ينهض به أولو التخصصات اللغوية علىٰ تنوعها وتكاملها للوقوف علىٰ حقيقة هذا الأمر وبيان أبعاده.

كما تغيرت لدي أيضا بعد هذه الدراسة بعض المفاهيم حول العصر الأموي وما أشيع عن الدولة الأموية؛ وإن لم يظهر ذلك في البحث ظهورا صريحا، لكنني أظن أن جنبات نقاطه تحمل بين طياتها ما يشي بقناعاتي الجديدة حول هذا العصر الذي دسّ عليه ما دسّ لغطا وغلطا وإفكا لصالح الشعوبيين ومن والاهم.

وقد انمازت خطب "الحجاج" بنبرة حجاجية سهل معها استخراج آليات حجاجه لها دون أن يشق ذلك أو يتمنع، وأظهرت خصائص ودلائل يمكن إجمالها فيما يأتي:

- ظهر أن تراثنا النقدي القديم استوفى جل النظريات الحديثة وإن لم ينص صراحة على مصطلحاتهم الجديدة، اكتفاء بالإشارة أو التلميح عن الفكرة المعبر عنها، والدليل على ذلك - فيما يخص البناء الحجاجي محل الدراسة- ما ورد في تراثنا حول مفهوم الجدل والحجاج، ترجمة لما جاء عن "أرسطو" وتنظيرا لعلمائنا من أمثال الغزالي والباقلاني والزركشي وغيرهم، وكأن فن الشعر الاهتمام الأول لنقادنا القدماء قد صبغهم بصبغة التكثيف فجاء نقدهم مكثفا وكأنه متن يحتاج إلى حواش تتعقبه، وشرّاح ينهضون بذلك.

- انماز الولاة في عصورنا العربية الزاهية باللسن والفصاحة فجاءت خطبهم آية في البيان والفكر والجدل، وهذه أمور يشترط تواجدها في القائد الحصيف الذي ينهض بأعباء الولاية وأمور الناس.

- ظهر في خطب "الحجاج" أثر منطقه وعقله؛ فقد كان يرتجل من الخطب ذوات البناء الفني والحجاجي المتماسك ما يشق على الآخرين أن يقولوها بعد صناعة وتحضير ولأي، وقد بان ذلك أتم ما يكون بيانه في ترتيبه أجزاء خطبته بحيث يلحق اللاحق على السابق على سبيل الضرورة أو الاحتمال وهذه هي الفلسفة المنطقية التي لا يجرؤ أحد أن يعارضها مما يجعله صاحب حق وإن كان الواقع ليس كذلك.

– تبين خطب "الحجاج" نبوغه في فهم نفسية المتلقين ودراسته لأحوالهم وما يجدي معهم، ومعرفته بمداخل القوم عقلا وشعورا، مما جعله ينوع في دواخله العقلية والشعورية في خطبه، بالإضافة إلىٰ حنكته اللغوية التي أوضحت له آليات اللغة المناسبة لكل مدخل.

– استطاع "الحجاج" بما أوتي من ذائقة دينية ولغوية أن يوظف آيات القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وأشعار العرب توظيفا حجاجيا يظهر الوجه الدلالي لما يستشهد به، وبهذا تعددت الأصوات داخل الخطبة، والأصوات المتعددة المتآلفة خير من الصوت الواحد، وكان ذلك أيضًا معضدا للفكرة التي يريدها، ودليل صدق لا يستطيع المتلقون أن يناهضوه أو يجادلوه.

– تيسر للحجاج قدر كبير من الثقافة التاريخية –كما هو ظاهر في خطبه– جعلته يعقد الموازنات ويقيم التشابهات بين مواقفه ومواقف سابقة استثمرها ليقيم الحجة علىٰ مخاطبيه، وهذا الجانب القياسي من أجل لغة الجدال والمحاجة، فبه تقام الحجة والبرهان اللذان يستمدان قوتهما من قوة القياس المقامين عليه.

– استثمر "الحجاج" الآليات اللغوية والبيانية والتركيبة استثمارا يظهر تمكنه من لغته الفصيحة، وفي الوقت ذاته يظهر دقة اللغة العربية في التوظيف والإبانة.

– أظهر البحث أن استنتاج الآلية الحجاجية من النص كله أجدىٰ وآكد من استخلاصها من جزئية منه؛ وذاك لأن النص يجب أن ينظر إليه كوحدة متماسكة البنيان يأخذ بعضها بأطراف بعض، ومن خير الأمثلة علىٰ ذلك

استخلاص السلم الحجاجي من الخطبة كلها وليس من جزء منها كما تم بيانه أثناء البحث.

- يظهر البحث أن وسائل الحِجاج وآلياته يستطيع الخطيب استخدامها في قلب الحقائق وتزييف الشعور، مما يدل علىٰ نجاح هذه الأدوات في العملية الإقناعية ويؤكد علىٰ أن الماهر باللغة قادر علىٰ إقناع المتلقي بما يريد.

- أظهرت النظرية الحجاجية وجها آخر لخطب "الحَجَّاج" مغايرا للوجه الذي كانت تظهر به قبل ذلك؛ وبهذا يمكننا التوجه إلىٰ تراثنا الأدبي مستعينين بالمناهج الحديثة التي تجلّي الوجوه الغائبة لهذه النصوص، وفي هذا إحياء لهذا التراث وبعثه.

- أظهر البحث أن الخطابة العربية اتسمت بالصبغة الإقناعية التي استمدتها من بنيتها الحجاجية، وقد تمثلت تلك البنية بواسطة تقنيات اللغة العربية التي ساعدت في إظهارها علىٰ أتم ما يكون ظهوره.

- تفيد هذه الدراسة في استخلاص فكرة عن العصر الأموي مفادها أن هذا العصر اعتلقت فيه قوة السيف مع قوة الكلمة؛ فالحَجَّاج استخدم كلتيهما في ردع الخارجين وإهماد ثوراتهم.

المصادر والمراجع:

- آليات الحجاج وأدواته، عبد الهادي بن ظافر الشهري، ضمن مجموعة مقالات وبحوث في: الحجاج مفهومه ومجالاته؛ دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب، إربد الأردن، الطبعة الأولىٰ ١٤٣١ه/ ٢٠١٠م.

- أروع القصص للكاتب العبقري والمصلح الاجتماعي تشارلز ديكنز، محمد عطية الإبراشي، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر.

- الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، إبراهيم بن محمد بن عربشاه عصام الدين الحنفي، حققه وعلق عليه: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

- البرهان في علوم القرآن، المؤلف : بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفىٰ : ٧٩٤هـ)، المحقق : محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة : الأولىٰ: ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م، دار إحياء الكتب العربية عيسىٰ البابىٰ الحلبي وشركائه.

- البلاغة والاتصال، جميل عبد المجيد، دار غريب، القاهرة، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٠م .

- البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، هنريش بليت، ترجمة د. محمد العمري، أفريقيا الشرق- المغرب، الطبعة الثانية ١٩٩٩م

- تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات، دار نهضة مصر للطباعة والنشر القاهرة.

- تحليل الخطاب الشعري استراتيجية التناص، د. محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، الطبعة الثالثة ١٩٩٢م.

- جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهية، الجزء الثاني العصر الأموي، أحمد زكي صفوت، مطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولىٰ ١٣٥٢ه / ١٩٣٣م.

- الحجاج بن يوسف الثقفي رحمه الله المفترىٰ عليه، د. محمود زيادة، دار السلام القاهرة، الطبعة الأولىٰ ١٤١٥ه ١٩٩٥م.

- الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، عالم الكتب الحديث الأردن، الطبعة الثانية١٤٣٢ه- ٢٠١١م.

- الحيوان، الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل بيروت، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

- خزانة الأدب وغاية الأرب، تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي الأزراري، تحقيق: عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال – بيروت، الطبعة الأولىٰ ، ١٩٨٧م.

- الخطابة، أرسطو طاليس، تحقيق عبدالرحمن بدوي، وكالة المطبوعات الكويت، ودار القلم لبنان ١٩٧٩م.

- الخطيئة والتكفير من البنيوية إلىٰ التشريحية، عبدالله محمد الغذامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب٢٠٠٦ م.

- دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، القاضي عبدالنبي بن عبدالرسول الأحمد نكري، عربه من الفارسية حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية بيروت.

– دفاع عن البلاغة، أحمد حسن الزيات، مطبعة الرسالة ١٩٤٥م.

– طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني – جدة.

– علم النص، جوليا كرستيفا، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال للنشر/ الدار البيضاء الطبعة الثانية ١٩٩٧م.

– فن الأدب، توفيق الحكيم، مكتبة مصر.

– في بلاغة الخطاب الإقناعي– مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية في القرن الأول نموذجا، د. محمد العمري، أفريقيا للشرق –بيروت لبنان، الطبعة الثانية ٢٠٠٢م.

– في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، أد عبدالله صولة، مسكيلياني للنشر والتوزيع تونس، الطبعة الأولىٰ ٢٠١١م.

– القاموس الموسوعي للتداولية، جاك موشر وآن ريبول، ترجمة مجموعة بإشراف عزالدين المجدوب، دار سيناترا المركز القومي للترجمة تونس، ٢٠١٠م.

– القول الشعري؛ منظورات معاصرة، رجاء عيد، منشأة المعرف، الإسكندرية.

– الكامل في اللغة والأدب، محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (المتوفىٰ : ٢٨٥هـ)، المحقق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي – القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧م.

– لسان العرب، ابن منظور، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مادة حجج، دار صادر، بيروت لبنان، الطبعة الأولىٰ بدون.

- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبدالرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٨م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، أبو الفتح ضياء الدين نصرالله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الموصلي، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية - بيروت ، ١٩٩٥م، ج٢ ص٢٢٤.
- المستصفي من علم الأصول، أبوحامد الغزالي، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولىٰ ، ١٤١٣ه.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، جمال الدين أبو محمد عبدالله بن يوسف بن هشام الأنصاري، تحقيق : د.مازن المبارك ومحمد علي حمدالله، دار الفكر - بيروت، الطبعة السادسة ١٩٨٥م.
- موطأ مالك - رواية يحيىٰ الليثي، مالك بن أنس، دار إحياء التراث العربي - مصر، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي.
- نهاية الأرب في فنون الأدب ـ النويري، تحقيق: مفيد قميحة وجماعة، دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولىٰ ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، المحقق : إحسان عباس، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولىٰ ١٩٧١.

المجلات العلمية:

- الاستدلال الحجاجي، مجلة عالم الفكر، حبيب أعراب، مجلد ٣٠ عدد (١) ٢٠٠١م.

– النص الحجاجي عند سهل بن هارون رسالته في البخل نموذجًا، فاطمة عويس، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد ٨٠ العدد ٤ أبريل ٢٠٢٠م.

رسائل علمية:

– آليات الحجاج في خطب الحجاج دراسة تداولية، رسالة التخصص للباحث محمد شكيمة، كلية الآداب واللغات جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي، عام ١٤٣٧ه/ ٢٠١٦ م.

– بنية الملفوظ الحجاجي للخطبة في العصر الأموي، رسالة التخصص للطالبة خديجة محفوظي، كلية الأداب واللغات جامعة منتوري قسنطينة٢٠٠٧م.